قيم التسامح والجمال
في فكر الأستاذ فتح الله كولن

إعداد وتحرير
صابر المشرفي

نسمات
nesemat.com
للنشر والتوزيع
دار الانبعاث

نسمات
بحوث ودراسات متخصصة
www.nesemat.com
Copyright©2021 Dar al-Inbiath
جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد وتحرير
صابر المشرفي

اللجنة الاستشارية العلمية
أ.د. محمد إقبال عروي
أ.د. محمد جكيب
أ.د. عبد المجيد بوشبكة
أ.د. هدى درويش
أ.د. سليمان الدقور
أ.د. باسم عيتاني
د.أبو زيد عبد الرحيم
د. جمال السفرتي
د. عبد الله الدعجاني

إخراج فني
أحمد شحاتة

غلاف
نور الدين صواش

البريد الإلكتروني
nesemat@yahoo.com

التوزيع
دار الانبعاث للنشر، مصر
Tel. : 002 02 25379391
Mobile: 002 01023201002
E-mail: info@daralinbiath.com
www.daralinbiath.com

الترقيم الدولي
ISBN: 978-977-6704-17-6

رقم الإيداع
2012/21981

رقم النشر
27
القاهرة – مصر

محتويات

١- لكي نؤسس أجيال التسامح (الافتتاحية) ٣
صابر المشرفي

٢- مفهوم التسامح والحوار عند فتح الله كولن ٦
يوكسل تشاير أوغلو

٣- التسامح والحوار في حركة فتح الله كُولَنْ (الخدمة)..... ١٦
سليمان أحمد شيخ سليمان

٤- إعادة تقييم المفاهيم العقائدية دور أكبر لحركة كولن
نحو تطوير الفهم الديني، مستمد من القرآن والإسلام ٣٣
إيان فراي

٥- مساهمة فتح الله كولن في دعم الحوار الإسلامي المسيحي
في سياق التعاون الإبراهيمي ٤٧
بيم فيلهلموس فالكينبيرج

٦- الدفاع عن التنوع والتسامح الديني في أمريكا اليوم:
دروس مستفادة من فتح الله كولن ٦٠
لوي أشتون

٧- "كولن"، والحوار مع (الآخر) ٦٦
ناصر أحمد سنه

٨- رؤية كولن الشعرية في التواصل مع الآخر ٨٠
العربي السيد عمران

٩- رؤى البيان والجمال في فكر فتح الله كولن ٩٧
محمد جكيب

لكي نؤسس أجيال التسامح

في ظل تسارع وتيرة الأحداث في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين، برزت إلى الوجود قيم جديدة تتسم بالاهتمام بالشكل والافتقاد إلى الجوهر والمضمون، وتعالت الشعارات الرنانة والدعايات الرخيصة، وتراجعت قيمة الإنسان الحقيقية، وصارت الإنسانية اليوم تعيش أشد أزماتها الوجودية.

وفي خضم هذه الأحداث الجسام التي يمر بها العالم كله والإنسانية جمعاء، بدأت بعض المفاهيم تبرز إلى الواجهة مرة أخرى، مثل مفهوم "الحوار" و"التسامح" و"التعايش"، فالمأزق الذي تعيشه الإنسانية اليوم يستوجب حضور جوهر مفهوم "الحوار" وكل المفاهيم المرتبطة به في وقتنا الحاضر، فمثل هذه المعاني هي أمل الإنسانية في المستقبل المتوسط والبعيد، وهي الأمل الذي سيبحث عنه من يعنيه الأمر، ومن يتطلع إلى جوهر الأشياء.

أما الأطراف التي تتخذ من الصراع محرك وجودها في الوقت الراهن، فهي لا تلقي بالاً لجوهر القيم الأخلاقية، بل تتبنى من الشعارات المفرغة من مضمونها الأخلاقي ما يضمن بقاء مصالحها، ويحقق تطلعاتها في السيطرة ويشبع نهمها المادي، لكن عندما تتوقف المنافع وتزول الحجب سيبدأ الجميع في البحث عن الحقيقة التي تنطلق من العقل السليم وتعتمد على المنطق المستقيم، وهنا تبرز أهمية الحوار وضرورته.

لقد صار الحوار ضرورة عصرية، بل أصبح سمة تميز عهدنا الحالي، فالتقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يومًا بعد يوم، بفضل التقدم التقني الهائل الذي أزال الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب. وقد خلق الله البشر مختلفين في الخصائص والصفات والطبائع، ويجب أن يُستثمر هذا الاختلاف باعتباره مصدرًا من مصادر التنوع والثراء، تشكل فيه هذه الاختلافات صورة بديعة لحديقة الإنسانية المباركة، لكل زهرة فيها عطرها الخاص وشكلها المميز، ومن الخطأ اتخاذ هذا الاختلاف سببا للصراع وللخصام؛ لأن ذلك سيؤدي إلى نسف جسور الأمن والسلام ويُلحق بالإنسانية ضررًا كبيرًا.

ومن ثم فهناك طريقان لا ثالث لهما لتعايش الناس معًا؛ أحدهما استعمال القوة والبطش، وهذا طريق مدمر نهايته الدمار والخراب وفناء العالم، أما الثاني فهو أن يتفاهم الأحرار فيما بينهم ويتفقون على إرساء عقد اجتماعي وقانوني للتفاهم، وتحديد أسلوب مشترك للتعايش يضمن حقوق الناس ويعبر عن طموحاتهم ويحدد مسؤولياتهم إزاء بعضهم البعض.

إن تأسيس خطاب إيجابي متوازن، يحافظ على الهوية الذاتية ويحترم التعددية الفكرية والثقافية هو اللبنة الأولى لتحقيق هذا التسامح واقعًا معاشًا، أما الأساس الذي ينبغي أن يعول عليه فهو تنشئة أجيال تمتلك الوعي اللازم الذي تنتفي فيه الازدواجية بين الثقافة التقليدية والحديثة، وتصدر عن رؤية إسلامية سمحة، وتتعمق في وجدانها أبعاد المواطنة التي تنتمي إلى المصالح العليا للأمة، بعيدًا عن دوامات الصراع والجدل المضيع للمال والوقت والفرص ليتحقق الهدف المنشود من استخلاف الإنسان على هذه البسيطة وعمارتها وفق المنهج الإلهي.

ولقد برزت مبادرات عديدة تدعم هذه الحاجة، وتأخذ زمام المبادأة في وقت كان الجميع يرفض كل هذه المحاولات وينقضها، ومن أهم الرواد الذين احتلوا مكانة بارزة في هذا الصدد الأستاذ "فتح الله كولن" رائد حركة الخدمة، فما فتئ يردد في كل مناسبة فضائل التسامح والحوار والتعايش المجتمعي، مرددًا عبارته الشهيرة: "افتح صدرك للجميع، افتحه أكثر ما تستطيع.

وفي حوار أجراه مع جريدة الوطن المصرية في أبريل/نيسان ٢٠١٧، أكد على أن هذا المنهج في الحوار والتعايش ليس بدعًا في القول ولا العمل، بل هو منهج نبوي أصيل طبقه النبي ﷺ وخاصة في وثيقة المدينة المنورة مع الذين كانوا يحملون أفكارًا مختلفة[1].

وفي تأصيله لفكرة التسامح في ضوء المبادئ الإسلامية الرئيسة، اتخذ من "البسملة" نقطة انطلاق؛ لما فيها من تكرار لاسمي الله "الرحمن" و"الرحيم"، فإن الله تعالى يريد أن يُعلّم المسلمين بتلك العبارة -إلى جانب حِكَمها الأخرى- أن يكونوا رحماء في علاقاتهم مع الآخرين من الناس وحتى مع الطبيعة. ويرى كولن أنه ينبغي التفكر كثيرًا والوقوف طويلًا على حكمة تكرار هذه العبارة مائة وأربع عشرة مرة في القرآن. كما ركز على مفهوم "الحُبّ" باعتباره منطلقًا أساسيًا أيضًا إلى جانب الرحمة في تأسيس أرضية للتعايش الإيجابي البناء

ولم تقتصر دعوته إلى التعايش الإيجابي والحوار الفعال على مجرد عرض الأفكار في دروسه ومحاضراته وكتبه، بل بدأ فعاليات دعا الناس فيها إلى نبذ الخلاف والعصبية والاجتماع على كلمة سواء، حيث انطلقت هذه الفعاليات من تركيا منتصف التسعينات من القرن المنصرم، ودعا فيها إلى التعاون للخلاص من الانقسامات التي تعاني منها البلاد سواء بين العلمانيين والمتدينين، أو بين العلويين والسنيين، أو غيرها من أشكال الانقسامات.

وقد لاقت هذه الجهود ترحيبًا شعبيًا واسعًا، والتقى على مائدة واحدة أناسٌ كانوا بالأمس القريب لا يعرفون سوى لغة التحزب والعصبية الطائفية، فصاروا يناقشون قضاياهم بكل هدوء

وبلغة راقية. وقد حمل أبناء الخدمة أصداء هذه الفكرة إلى كل مكان رحلوا إليه أو أسسوا فيه مؤسسات تعليمية وتربوية.

لقد أسهمت المؤسسات التعليمية والتربوية التي أسسها أبناء الخدمة في نحو ١٧٠ دولة من دول العالم في ترسيخ هذا المبدأ، خاصة في المناطق التي تعاني من هذا الداء؛ ففي جنوب "الفيليبين" مثلا فتح محبون للخدمة مدرسة أسموها "مدرسة التسامح الفيليبينية"، وهي تتواجد في منطقة يقطنها ٥٠٪ من المسلمين و٥٠٪ من المسحيين، ويغلب على هذه المنطقة طابع التوتر والتجاذب بين هؤلاء الأطياف. لكن المدرسة تعطي التلاميذ الفليبينيين مسلمين ومسيحيين دروسًا إيجابية وذات جودة عالية في كيفية التعايش مع الآخر، ويعمل فيها كوادر محلية من المسلمين والمسيحيين على السواء، وكذلك الأمر في البوسنة والهرسك بين البوسنيين والصرب والكروات، وفي إقليم كردستان بين الأكراد والعرب والتركمان والقوميات الأخرى، وفي مناطق أخرى من العالم نجحت بفضل الله تلك المدارس في تأسيس هذه القيمة ورعايتها والقضاء على القبح الناتج عن التهميش والإقصاء.

لكن ما يحز في النفس الآن، أن الحكومة التركية بعد إغلاقها لكافة المؤسسات في تركيا، تبذل كل جهدها وتنفق أموال الشعب للعمل على إغلاق هذه المؤسسات في الخارج، بدلاً من الاهتمام بمشكلاتها الداخلية، والتصدي لظاهرة الإرهاب التي بدأت تتنامى في الفترات الأخيرة وتحصد الأرواح بلا وازع من دين أو إنسانية[٢].

وفي هذه الإصدارة من نسمات، نلقي مزيدًا من الأضواء على "قيم التسامح والجمال في فكر الأستاذ فتح الله كولن"، وكيف تجلت هذه القيم مبادراتٍ حيةً على أرض الواقع في تطبيقات أبناء الخدمة، وذلك من خلال نخبة من الكُتّاب متعددي الأجناس والأعراق والأفكار والأديان، تعبيرًا بحق عن تجلي هذه الروح -روح التسامح والجمال- من خلال هذه الكوكبة.

صابر المشرفي
رئيس التحرير

الهوامش

(١) راجع حوار الأستاذ في جريدة الوطن، في مواقف في زمن المحنة

(٢) بتصرف من حوار الأستاذ كولن مع جريد الوطن المصرية، ينظر مواقف في زمن المحنة.

يوكسل تشاير أوغلو

باحث وكاتب أكاديمي تركي، ولد في جناق قلعة إحدى محافظات تركيا عام ١٩٨٢. تخرج في كلية الإلهيات عام ٢٠٠٥ بجامعة إزمير دوكوز إيلول. حصل على الماجستير عام ٢٠٠٨ في رسالة بعنوان "الزاهد الكوثري والفكر الفقهي"، ونال الدكتوراه عام ٢٠١٣ بأطروحة عنوانها "مشكلة الطعام الحلال في الشريعة الإسلامية"، وهو أحد طلاب الخدمة الذين يستلهمون أفكارهم من الأستاذ فتح الله كولن، ومتخصص في الدراسات والبحوث حول الخدمة إلى جانب تخصصه في الشريعة والفقه الإسلامي، ومن مؤلفاته حول الخدمة: فتح الله كولن رجل الفكر والفاعلية.

مفهوم التسامح والحوار

عند فتح الله كولن

١

"الحوار" هو أول ما يتبادر إلى الأذهان إذا ما ذُكر اسم الأستاذ "فتح الله كولن"؛ لأنه ربما لا يوجد إنسان آخر سواء في العالم الإسلامي أو في العالم الغربي يسعى إلى إقامة حوار مع مختلف فئات المجتمع ونشر بذور المحبة والتسامح بقدر الأستاذ كولن. إن أنشطة الحوار التي ابتدرها في المجتمع التركي في فترة التسعينات التي كانت البنية المجتمعية فيها مجزأة إلى حد ما من الناحية العرقية والدينية والسياسية، قد تخطت حدود الدولة فيما بعد، وانتشرت على نطاق واسع جدًّا. وما لبثت هذه الأنشطة أن تحولت بفضل متطوعي الخدمة في الأعوام المتقدمة إلى بنية مؤسسية، وأحرزت نجاحات مهمة في هذا الصدد. فقد اجتمع المنتسبون لشعوب وأديان مختلفة على طاولة واحدة، ونُظمت برامج وأنشطة مشتركة بفضل مراكز الحوار الموجودة اليوم في مختلف دول العالم[١]. ولا جرم أنه يكمن خلف هذا القدر من أنشطة الحوار والتسامح المتحققة على نطاق واسع، أفكار مهمة للأستاذ كولن قد صاغها بشكل نظري[٢].

تعريف الحوار وماهيته

حاول الأستاذ كولن من خلال تعليقاته وشروحه توضيح مفهومي التسامح والحوار والتأكيد على المعنى الذي يجب فهمه منهما، ومن ناحية أخرى أزال المفاهيم الخاطئة التي تحوم حول مفهوم الحوار. فقد استخدم أسلوبًا أدبيًا بليغًا إلى حد كبير عند تناوله هذا الموضوع، ورصعه بالتعبيرات والمفاهيم الجديدة. ومن ثم يجب النظر في التعريفات المتعلقة بالموضوع إلى جانب المفاهيم والتعبيرات المستخدمة حتى يتسنى فهم المقصود من التسامح والحوار فهمًا صحيحًا وافيًا.

يرى الأستاذ كولن أن الاحترام والرحمة والإحسان والتسامح هي ركائز أساسية في الأنظمة الأخلاقية، ومبادئ روحية يمكن اعتبارها منبعًا أساسيًا لأخلاق الإنسان الكامل وجميع الأنظمة والمبادئ الأخرى. فهو يعرض معنى أكثر شمولية وعمقًا إلى حد كبير لكلمة التسامح من خلال تعليقاته هذه:

"يجب أن يكون التسامح هو حصننا الحصين وقلعتنا المنيعة وسلاحنا الأشد تأثيرًا تجاه العوائق التي تسببها الفروق والاختلافات وصعوبات التفاهم المحتمل أن تقطع طريقنا على رأس كل زاوية عند سيرنا نحو المستقبل كأمَّة: فإن دائرة التسامح واسعة لتشمل في طياتها التغاضي عن العيوب، واحترام الرأي الآخر، والعفو عن كل ما يمكن العفو عنه؛ حتى عند انتهاك حقوقنا التي لا مراء فيها لا نسعى إلى "إحقاق الحق" معلين من شأن القيم الإنسانية السامية؛ والرد على أشنع الأفكار وأقبح الرؤى التي لا يمكن مشاركتها بتمكين نبوي، ودون سخط، و"بقلب لين، وحال لين، وفعل لين" بشعار "قول لين" الذي نفذ القرآن من خلاله إلى القلوب؛ حتى إن بعض الأفكار المخالفة تكون مفيدة -حتى وإن لم تخبر هي أو تداعياتها بشيء بشكل مباشر- باعتبار أنها تجبر حياتنا القلبية والروحية والوجدانية صرفًا إلى الإصلاح والتعمير كثيرًا"[٣].

كما عرَّف الأستاذ كولن الكلمة الغربية "Tolerance" التي تقابل كلمة "التسامح" بـ: "التغاضي عن الأمور غير المرضية برحابة الإيمان والوجدان وسعة الصدر أو استيعابها بقوة المشاعر". ومن ثم فإنها وإن كانت تقترب في المعنى من التسامح إلا أنهما ليسا سواء[٤].

و"الحوار" عند كولن هو عبارة عن اجتماع فردين أو أكثر على أرضية مشتركة مهما كانت الأفكار التي يتبنونها، ويتحدثون في موضوعات محددة ويستمع كل منهم إلى الآخر في جو يسوده الصراحة وحسن النية واحترام الآخر؛ ومن ثم سيتمكن كل منهم من التعرف على الآخر

بنفسه، ويتمازجون معًا. فلا يصح في الحوار أن يحاول أي طرف أن يرغم الطرف الآخر على أن يتقبل فكرته، أو ينتظر أن يعدل الطرف الآخر عن فكرته ومعتقده. على الشاكلة نفسها فإن التزام الأطراف المشتركة في الحوار باحترام مشاعر وأفكار بعضهم بعضًا لا يعني ألبتة أنهم مجبرون على التنازل عن مفاهيمهم الدينية أو تقبل أفكار الطرف الآخر[٥].

كما عبر الأستاذ كولن عن أن عبارة "احترام الموقع" هو تعبير يحمل أيضًا معنى أكثر عمقًا بخلاف التسامح والحوار؛ لأنه يتضمن أن المخاطب إنسان مهما كان دينه أو عرقه أو معتقده، والإنسان جدير بالاحترام. ومن ثم فإن المعنى الذي يقصده كولن من "احترام الموقع" هو احترام الإنسان والقيم الإنسانية على حد سواء. فضلًا عن أنه يرى أن احترام الموقع يتضمن في الوقت نفسه احترام المعتقد. لأن القيم التي يؤمن بها الفرد ويعتقد بصحتها هي جزء لا يتجزأ من شخصيته[٦].

وقد أورد الأستاذ كولن عبارات مختلفة حول التسامح والحوار التي تعكس نظرته إلى احترام الموقع في العديد من مؤلفاته، ومنها: "الاجتماع حول قيم عالمية"، "تبادل الخبرات البشرية"، "الاتفاق على قيم مشتركة"، "تأسيس جسور الصداقة"، "المساهمة في السلام العالمي"، "خلق جو من السلام العام للإنسانية"، "بناء عالم قائم على الحوار وخال من النزاعات والشقاقات"، "قبول كل فرد في موقعه الخاص به"، "احتضان الجميع دون إهمال أي فئة في المجتمع"، "الاقتراب من الجميع ومن كل شيء بدافع الحب"، "استخدام قوة الحب الخفية والسحرية لصالح البشرية"، "عدم جعل الاختلافات سببًا للانشقاقات"، "احترام حقوق الإنسان وحرياته، ودعم جميع مسارات الديمقراطية"، "احترام الإنسان الذي هو تجلٍّ لـ"أحسن تقويم" لإنسانيته فحسب"، "تهيئة مقعد يمكن للجميع أن يتربعوا عليه في القلب، وعدم التسبب في شعور أحد بالقلق حيال بقائه واقفًا دون مكان له"، "الاعتراف بأحقية الجميع في الاستفادة من الحقوق نفسها"، "التعامل مع الضارب بدون يد، ومع القاذف بدون لسان، ومع كاسر القلب بدون قلب"، "ضرورة تأسيس علاقة إنسانية مع كل الفئات، والعثور على أرضية مشتركة دون النظر إلى الهوية الدينية والعرقية"...

أسس الحوار

وعلى الرغم من أن مساعي كولن من أجل إقامة الحوار قد لاقت بشكل عام تقديرًا من الأغلبية العظمى من المجتمع، فإنها قد واجهت أحيانًا بعض الانتقادات. ينتقد بعض المتدينين لقاءه بالمنتسبين إلى أديان مختلفة؛ ادعاءً بأن هذا يخالف الدين الإسلامي، وانتقد بعضهم

الهدف الذي يبتغي الوصول إليه بالحوار. لذا فإنه من الفائدة التوضيح بشكل موجز سببَ الحاجة إلى الحوار، والأسسَ الشرعية التي يستند عليها، وأهمية الحوار في ظل ظروف عصرنا، معتمدين في هذا كله على تصريحات كولن شخصيًّا.

بادئ ذي بدء يجب التأكيد على أنه يكمن في أساس فكرة الحوار عند كولن هو تصوره ورؤيته للإنسان. فالإسلام يعتبر الإنسان مخلوقًا مكرَّمًا ومشرَّفًا ومحترمًا قد خُلق في أحسن تقويم، ويجب تقديره واحترامه[٧]. ولا سيما أن الله تعالى قد شرفه بمرتبة الخلافة، وسخر له كل الموجودات والأشياء، وأودعه حق التصرف في المخلوقات، وأوجد الكون بأسره من أجله وخلقه بشكل يتناسب مع نفعه ومصلحته، ومن هذا المفهوم نجده ﷺ يقف لجنازة تمر من أمامه، فأخبروه بأنه يهودي، فقال ﷺ: "أَلَيْسَتْ نَفْسًا"[٨]. فإن كل إنسان يحوز هذا القدر والشرف بالفطرة. ولذا وجب احترامه وحبه[٩].

ولقد عبر الأستاذ كولن عن أن احترام الإنسان بسبب هذه المكانة السامية التي يحوزها، وحبه صرفًا لأنه إنسان، لهو تعبير عن حب الخالق ﷻ. كما يقول إن الحب والاحترام الموجه لمن يشاركون الإنسان نفس القيم والأفكار فحسب ليس بالحب والاحترام الصادق والإنساني، بالعكس، إنه تعبير عن الأنانية وتأليه النفس. لهذا يجب أن يبني معماريو المستقبل العالم الذي سيشيدونه على أساس يقوم على حب الإنسانية واحترام الإنسان ظاهرًا ومعنى[١٠].

ومن ناحية أخرى فقد عبر كولن في مرات كثيرة عن أن الإسلام هو منبع مفهوم التسامح والبحث عن الحوار. فكما أن هناك آيات كريمات كثيرة في القرآن الكريم تدعو المسلمين إلى التسامح وإقامة الحوار مع الآخرين[١١]، فإن هناك أيضًا أمثلة لا حصر لها من حياة رسولنا الكريم ﷺ[١٢]. وبرهن كولن بحوادث كثيرة على مكانة الحوار في حياة المصطفى ﷺ من قبيل استقباله ﷺ نصارى نجران في المسجد، وتوقيعه صلح الحديبية مع المشركين رغم بعض التنازلات والبنود المجحفة التي بدت وكأنها ليست في صالحه، وعقده وثيقة المدينة التي أمَّنت الحريات والحقوق الأساسية لليهود والمشركين، وتأكيده مرة أخرى بعد مرور عشر سنوات على هذه الحقوق الأساسية في خطبة الوداع، وذهابه مرات كثيرة إلى مشركي مكة كأبي جهل والحديث إليهم، وإرساله الكتب إلى جميع رؤساء القبائل والدول.

وبحسب كولن فإنه كما أن رسول الله ﷺ قد بحث عن سبل الحوار مع غير المسلمين طول حياته السنيَّة، فإن الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من القادة المسلمين أمثال صلاح الدين الأيوبي ونور الدين زنكي والسلطان محمد الفاتح وبايزيد الثاني قد اقتفوا أثره في هذا

الشأن. فعند النظر في التاريخ فلن تجد المسلمين في أي موضع قد هدَّموا أو خرَّبوا معابد غير المسلمين، بالعكس، فإنك سترى الكنيسة والكنيس والمسجد قد استمر وجودهم جنبًا إلى جنب؛ وأنهم لم يعتدوا على حقوقهم، ولم يقيدوا حرية فكرهم واعتقادهم.

كما عبر الأستاذ كولن عن أنه عندما سُلبت الأقليات الذين كانوا يعيشون تحت وصاية المسلمين حقوقهم الأولية هذه من قبل قوات احتلال أخرى عرفوا قيمة الحقوق التي كان المسلمون يكفلونها لهم.

وفي النهاية فإن كولن يرى أن السلام والحب والشفقة والأمن والعفو والبر والتسامح والحوار هي ركائز أساسية في الإسلام. وكما أن اسم الإسلام يعبر عن هذا من حيث معنى الجذر الذي اشتق منه، فإن هذه القيم الأخلاقية يتم التأكيد عليها بإصرار في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. كما أن رسول الله ﷺ قد تعامل بقدر كبير من الرحمة والشفقة حتى مع الحيوانات ناهيك عن البشر، وكان يتأذى لأي أذى ولو صغيرًا يتعرضون له، وقد نبَّه من حوله إلى هذا الأمر(١٣).

وفي هذه الحالة فإن من لم يتناول الدين بدقائقه هذه لم يفهم الإسلام بحق، ولم يبلغ ولم يمثل الإسلام بالشكل الصحيح. فضلًا عن أنه من لم يمثل ويبلغ هذه القيم الإسلامية لا يمكن أن يكون مسلمًا حقيقيًا. ومن هذا المنطلق فإن الأفعال المتشددة والعدائية التي تنبع عن انحراف الأفكار المختلفة من بعض الأفراد أو الجماعات المتطرفة التي لم تتمكن من فهم هذه المفاهيم الدقيقة في الدين، واستيعاب الإسلام بمفهومه الكامل لا يمكن أن تُنسب إلى الإسلام. والحاصل أن التسامح والحوار هما أسلوب فكر إسلامي، وأن الأنشطة المتحققة باسم الحوار هي عبارة عن انعكاس هذا الفكر على أرض الواقع(١٤).

أهمية الحوار في يومنا الحاضر

على الرغم من تصريح فتح الله كولن بأنه لم يكن هو من بدأ أنشطة الحوار والتسامح بنفسه وإنما هي قيم مطبقة منذ مطلع التاريخ الإسلامي، فمن المحتمل أن التسامح والحوار لم يُفسرا بهذا القدر الثري في أي مرحلة مرَّت من مراحل التاريخ، ولم يجدا الفرصة للتطبيق على نطاق واسع كهذا. يريد كولن بخطاباته وتطبيقاته أن يرسخ الحوار في عالمنا الحاضر على أسس عالَم متعدد الثقافات، وكأنه يتوقع مواطنة في عالم بلا حدود.

أصبح عالمنا اليوم مختلفًا جدًّا عن العهود السابقة نتيجة الحداثة؛ فقد بدأت الحدود تختفي مع العولمة، وأصبحت هناك قيم مشتركة في جميع أنحاء العالم بتطور وسائل التواصل

الاجتماعي. ولكن مع هذا فإن التطور التقني والتكنولوجي قد كشف عن أسلحة دمار شامل، أصبحت تشكل تهديدًا كبيرًا على الإنسانية جمعاء. وقد ظهر اليوم بتأثير فلسفة التنوير نماذج أفراد ومجتمعات ودول جديدة، وأعيد تشكيل العلاقات والتوازنات بين الدول. لقد أصبحت التعددية والعلاقة مع الآخر من أهم الموضوعات وذلك تزامنًا مع بدء المنتسبين إلى أديان وأعراق وثقافات مختلفة في التمتع بحقوق متساوية كمواطني نفس الدولة. وعلى الشاكلة نفسها بدأت المجتمعات الأقلية والمهاجرون مع موجة الهجرة الكبيرة المتحققة في القرن الأخير تشكل كتلة مهمة في البلدان، وظهرت مشكلة التكامل والاندماج.

وبحسب الأستاذ كولن فإن كل هذه التطورات والتغيرات المعيشة في يومنا الحاضر -كما ذكرنا بإيجاز- تجعل التسامح والحوار ضرورة ملحَّة. لا جرم أن التأثير الجاد لرسالة "صراع الحضارات" التي طرحها هنتنغتون في العالم الغربي، وكذلك محافظة الثقافات المحلية على وجودها رغم كثرة المواقف القمعية للحداثة، والتعبير عن نفسها، وكذلك استخدام لغة الكراهية تجاه الآخر في مواضع مختلفة بتأثير العداوة والخوف الموروث من الماضي والنزاعات والصراعات المتحققة في عدة مجالات في الحياة قد أثبتت صحة ما قاله كولن.

وبما أنه ليس من الممكن أن تعيش أي أمة أو جماعة بمعزل عن العالم في عالم زادت فيه العولمة تأثيرها بأقصى سرعتها فهناك احتمالان: أولهما أن تكون هناك علاقة قائمة على الصراع والعنف بين منتسبي الأديان والأمم المختلفة كما قال هنتنغتون؛ ثانيهما أن تسود علاقة تقوم على الحوار الذي يقوم في أساسه على الحب والاحترام والصلح والتسامح والتعاون المشترك. ومن ثم فإن كولن يرى أنه يجب ترجيح الشق الثاني من الاحتمالين بالتأكيد في عالم اليوم الذي يمتلك أسلحة فتاكة مخيفة، وأن يُؤسَس صلح عام على مستوى العالم. ولا يتأتى تحقيق ذلك إلا من خلال قبول جميع الاختلافات واحترامها بشكل طبيعي. وإلى جانب هذا يجب نسيان الحوادث السلبية المعيشة في الماضي، وإعطاء أولوية للقيم المشتركة بدلًا من القضايا الجدلية التي لا طائل منها. وإلا فسيكون التهام العالم نفسه في شبكة الصراعات والنزاعات والمشاجرات والحروب الأكثر دموية واستعداده لنهايته نتيجة حتمية لا مناص منها[١٥].

أهمية الحوار ومميزاته

أكد كولن على أهمية أن يجتمع الناس في كل فرصة ويتعارف كل منهم على الآخر. وقد بيَّن القرآن الكريم أن الله ﷻ قد خلق الناس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ويتقاربوا ويتفاهموا[١٦]. لأن السبيل إلى تخلص الناس من الحكم المسبق والقضاء على مخاوفهم تجاه بعضهم بعضًا

مرهون بهذا. فالموضع الذي لا يكون فيه تعارف يكون فيه "تصور". والتصور هو في الغالب عبارة عن أفكار وظنون في أذهان الناس بشأن الآخرين. ومن ثم فإنها في أغلب الأحيان لا تعكس الحقيقة. ذلك أن النزعة العامة لابن آدم هي أن يرى نفسه "جيدًا" والآخر "سيئًا". لذلك يكون من الصعب دائمًا تقييم الطرف الآخر بإنصاف وعدل. وربما أُطلقت عبارة "الإنسان عدو ما يجهل" لهذا السبب. وهكذا فإن الحوار هو الوسيلة الوحيدة لتصحيح القناعات الخاطئة التي نعرفها عن الآخرين، ووسيلة كذلك نتمكن من خلالها من تعريف أنفسنا للآخرين بشكل صحيح.

وإضافة إلى هذا، فكلما تعرف الناس على بعضهم بعضًا عن طريق الحوار زالت الحدود والفجوات المصطنعة من بينهم؛ وحِيل دون كراهية الأجانب والغرباء، والراديكالية المتصاعدة، والإرهاب والنزاعات المحتملة؛ وستزول كذلك الشعارات والادعاءات والتوصيفات الباطلة والأفكار السلبية المترسخة، وبالتالي يصير العالم أكثر ملاءمة للعيش، ومكانًا أكثر أمنًا واستقرارًا. لهذا السبب فإن الأستاذ فتح الله كولن يرى أن أكثر الأشياء احتياجًا إليها اليوم هو **إذابة الحقد والعداوة في بوتقة التسامح**[١٧].

من ناحية أخرى يوصي كولن متطوعي الخدمة المنتشرين في ربوع العالم من أجل التعليم والحوار بأن يبادلوا من تعرفوا إليهم ومن جذبوهم إلى الحوار الثقافة والمعرفة. لأنه يرى أن كل ثقافة وحضارة لها بعض الجماليات والقواسم الخاصة بها. وهكذا فإذا اجتمع منتسبو الأديان والثقافات المختلفة على أرضية مشتركة وتعرف بعضهم إلى الآخر، فسيتقاسمون حتمًا القواسم والجماليات التي يرونها عند بعضهم الآخر[١٨].

من المعلوم أن عالمنا اليوم مقسم بشكل مصطنع إلى قطبين، شرق وغرب أو إسلامي ومسيحي. وهناك بين كلا القطبين منذ قديم الزمان مشادات وعداوات مستمرة. فبينما يشتكي العالم الإسلامي -عن حق- من أن الغرب يسيء فهم الإسلام ويصوره على أنه دين الرجعية والعنف والإرهاب، يشكو الغربيون أيضًا من أن المسلمين "أعداء الغرب" ولا يمكنهم تبني القيم الغربية الحديثة.

وفي هذا الصدد لفت كولن الأنظار إلى أن الحوار هو الطريق الوحيد لتعبير كلا الطرفين للآخر عن نفسه بشكل صحي، فيقول: "إذا كنت تريد أن تعبر للناس عن شيء من الحقائق التي تؤمن بها وتتبناها، فيمكنك فعل ذلك وجهًا لوجه في ظل الزمان والظروف التي تكون فيها قريبًا من مخاطبك، وليس في ظل الظروف والزمان التي تولي فيها ظهرك له"[١٩]. وبتعبير آخر إذا

أردنا أن يتخلص الناس من القناعات الخاطئة التي يعتقدونها بشأننا، وأن نبين لهم أن السلبيات التي تقلقهم بشأننا ليست فينا، وجب علينا أن نقابلهم، ونتقرب إليهم، ومن ثم نمنحهم الفرصة للتعرف علينا عن كثب بكل أحوالنا[٢٠].

حدود الحوار

أكد فتح الله كولن على ضرورة مراعاة بعض الحدود المتعلقة بالقيم الدينية التي يمتلكها الشخص القائم بالحوار والشخص الذي سيتحاور معه أو المجموعات والغاية المرجوة من الحوار. فهو يرى بداية أنه لا يجب أن يقدم المسلم أية تنازلات فيما يتعلق بأوامر الدين بسبب التسامح والحوار؛ فليس من الصواب أن يترك الفرائض أو الواجبات أو السنن. فإن اقتناع الطرف الآخر به في الحقيقة مرهون بتمسكه بقيمه الخاصة وتطبيقه لها بحساسية إلى أن يصل إلى آدابها وأصولها. ومن ثم فإنه على حد قول مولانا جلال الدين الرومي: إن قلبي مثل الفرجار، رجل ثابتة في أرض الشريعة والأخرى تدور على اثنتين وسبعين ملة، أي إن الحوار سيكون مفيدًا بالنسبة له إذا كانت تحركاته مقيدة بجوهر الدين؛ وإلا حدثت له انزلاقات[٢١].

وقد عبر كولن بضرورة أن يكون المسلم متزنًا ومنضبطًا دائمًا في كل أقواله وأفعاله، فيوضح أنه من المهم للغاية أن يعرف المسلم من هو المستحق والجدير بالتسامح. فمع أنه يعتقد بضرورة أن يحترم الإنسان الجميع باعتبار أنهم بشر ويتسامح معهم، فإنه يرى في الوقت نفسه أنه لا يجب قبول الصفات السيئة من قبيل ظلم الناس والقذف والكذب والغش أو التسامح معها[٢٢].

كذلك بيَّن كولن أوصاف الناس الذين هم جديرون بالحب والاحترام. فهو يرى أن الرحمة بأفعى الكوبرا فعل مستهجن يخالف الرحمة نفسها، واعتداء على حقوق الآخرين. فإن التعاطف والتودد إلى الظالمين والمعتدين يدفعهم إلى مزيد من الظلم والاعتداء. لذا يجب ألا يتسامح مع هذا النوع من الناس الذين يهددون القيم الإنسانية العالمية، ويعرضون مستقبل الإنسانية للخطر، ويدمرون القيم المعنوية والقومية. والحقيقة أنه لا حق لأحد في أن يتسامح مع أي شخص في موضع يمس حقوق الآخرين. فربما يكون الخير الأكبر الذي تقدمه لهم هو نهيهم عن الظلم الذي اعتادوا عليه وألفوه[٢٣].

وإلى جانب هذا فإنه على الرغم من أن كولن يرى أهمية محاولة **تحقيق توافق في الآراء** بين من يشاركون في الحوار، فإنه لم يجد **توقعات الالتحاق** أمرًا صائبًا، يقول: "إن تحقيق التوافق في الآراء مرهون بتفعيل أساس التفاعل. والسر يكمن في قبول الجميع كما هم. خلاف هذا

فإنه يعني أنه توقع للالتحاق بمظهر توافق في الآراء. أي إنك تقول من ناحية لنجلس ونتحدث ونصل إلى نقطة توافق على القيم التي نتشاركها؛ ومن ناحية أخرى تقولون تعالوا إلى بيتنا ولنتفق على فكرتنا. لا، هذا التحاق وليس توافقًا في الرؤى. هذا نوع من التمثيل والتشبيه. هذا يعني دعوة الآخرين إلى التخلي عن هويتهم وأن يصبحوا "نحن". وهذا نوع من الادعاء والأنانية. فإن فعله فرد فهو أنانية فردية، وإن كانت جماعة فهي أنانية جماعية، وإن كان مذهب فهي أنانية مذهبية"[٢٤].

متطلبات الحوار

تناول فتح الله كولن بعض النقاط التي تجعل الحوار صحيًّا ومثمرًا لجميع الأطراف. فهو يرى أن أول ما يجب فعله في هذا الصدد هو **عدم التسبب في نقاط خلاف جديدة**، وذلك بنقل المشكلات المتنازع عليها في الماضي إلى يومنا الحاضر. لهذا السبب يجب أن تُدفن المساوئ التاريخية في الماضي، والعمل على نسيانها، وأن يركز بعدها على الأنشطة المثمرة التي يمكن فعلها. وإلا فليس من المنطقي ولا المعقول أن نخرب حاضرنا بمشاعر الانتقام الموروثة من ماضٍ خرب بالفعل[٢٥].

ثانيًا، من غير المجدي أن نتوقع من أولئك المفعمين بالكراهية والعداء تجاه بعضهم بعضًا أن يُقام بينهم حوار صحي. لذا كان من المهم جدًا لكلا الطرفين أن يتمتعا بالمقدرة على **العفو** عن أخطاء وقصور بعضهما بعضًا إن وجدت. ويجب أن تكون كلمات الأستاذ كولن هذه بشأن العفو معيارًا مهمًّا في هذا الصدد:

"لقد أصبح القرن أو القرنان اللذان خلفناهما وراءنا من أقذر وأسوأ العصور بسبب مساوئ من لا يعفون ولا يتسامحون. ولا يتمالك الإنسان نفسه من أن يخالجه شعور بالخوف والقلق كلما تخيل أن هؤلاء التعساء سيحكمون المستقبل. لذلك فإن أعظم هدية يقدمها أجيال اليوم إلى أبنائهم وأحفادهم هي تعليمهم العفو حتى في مواجهة أكثر السلوكيات فظاظة وأشد المواقف والحوادث قبحًا واشمئزازًا. فنحن نؤمن بأن التسامح والعفو جديران بشفاء معظم جراحنا"[٢٦].

وأخيرًا فإن الحب كما يقول الأستاذ كولن هو أساس الحوار والتسامح. ومن ثم من الصعب جدًّا توقع أن يتسامح هؤلاء المحرومون من الحب[٢٧]. فهو يرى أن الله ﷻ لم يخلق وسيلة ارتباط أقوى من الحب فيما يخص ارتباط الناس بعضهم ببعض. الحب هو مصدر قوة سحرية تأسر وتجذب القلوب بشكل لا يمكن مقاومته. فإن شعور القلوب بالأعماق الرحبة للإنسان

لا يتأتى إلا بالحب. لهذا السبب فإنه من الصعب جدًّا على الأرواح التي لا تعرف الحب أن تنضج وتتحلى بالقيم الإنسانية. وليس من الممكن للأرواح النيئة/الخام التي تعيش بعيدًا عن القيم الإنسانية أن تخطو خطوة واحدة نحو التسامح والحوار[٢٨].

الهوامش

(١) من الفائدة بمكان توضيح: أن الحوار والتسامح هما في الحقيقة رؤية لجميع رجال الخدمة الذين ينهلون مورد كولن العذب، وهي مسألة يحملون هم تطبيقها في كل فرصة. وتعمل جميع مؤسسات الخدمة في الأصل على تنفيذ أنشطة الحوار وفق ظروفها.

(٢) قد جُمعت أفكار الأستاذ فتح الله كولن حول التسامح والحوار في كتاب بعنوان "الحب في جوهر الإنسان".

(3) Fethullah Gülen, Yeşeren Düşünceler, s. 29-30.

(4) Fethullah Gülen, Kendi Ruhumuzu Ararken, s. 76.

(5) Fethullah Gülen, İnsanın Özündeki Sevgi, s. 155; Cemre Beklentisi, s. 77, 195; İkindi Yağmurları, s. 238; Prizma, 3/118.

(6) Fethullah Gülen, Cemre Beklentisi, s. 76-77; Sükûtun Çığlıkları, s. 37; Cemre Beklentisi, s. 77.

(٧) انظر: سورة التين (٤/٩٥)، وسورة الإسراء (٧٠/١٧).

(٨) صحيح البخاري، الجنائز، ٥٠؛ صحيح مسلم، الجنائز، ٨١.

(9) Fethullah Gülen, Yenilenme Cehdi, s. 163-164;

(10) Fethullah Gülen, Çağ ve Nesil, s. 43.

(11) Bkz. Ali Can, Kur'ân'da Ehl-i Kitapla Diyalog, Yeni Akademi Yayınları, İzmir, 2011.

(12) Bkz.İbrahim Canan, "Peygamberimizin Ehl-i Kitapla Diyaloğu", Diyaloğun Dinî ve Tarihi Temelleri, Işık Yayınları, İzmir, 2006.

(١٣) انظر: أحمد بن حنبل، المسند، ١٧٣/٤.

(14) Mehmet Gündem, Fethullah Gülen'le 11 Gün, s. 200; Fethullah Gülen, Prizma, 2/36; Prizma, 3/211-214; Fasıldan Fasıla, 2/178; Fasıldan Fasıla, 3/98-99; Gurbet Ufukları, 70-76.

(15) Fethullah Gülen, İnsanın Özündeki Sevgi, s. 225; Yenilenme Cehdi, s. 256.

(١٦) سورة الحجرات، ١٣/٤٩.

(17) Fethullah Gülen, Fasıldan Fasıla, 2/110-111.

(18) Fethullah Gülen, Yolun Kaderi, s. 41.

(19) Fethullah Gülen, Cemre Beklentisi, s. 79-80.

(20) Fethullah Gülen, Cemre Beklentisi, s. 79-80.

(21) Fethullah Gülen, Kendi Ruhumuzu Ararken, s. 76, Fasıldan Fasıla, 2/112.

(22) Fethullah Gülen, Fasıldan Fasıla, 2/91.

(23) Fethullah Gülen, Prizma, 3/70-71, 205.

(24) Fethullah Gülen, Fasıldan Fasıla, 2/179.

(25) Nuriye Akman, Gurbette Fethullah Gülen, s. 67.

(26) Fethullah Gülen, Çağ ve Nesil, s. 71.

(27) Nevval Sevindi, "Röportaj", Yeni Yüzyıl Gazetesi, 20-29 Temmuz 1997.

(28) Fethullah Gülen, Işığın Göründüğü Ufuk, s. 47-49; Yeşeren Düşünceler, s. 121.

سليمان أحمد شيخ سليمان

كاتب وباحث سوري، تخرج في دار نهضة العلوم الشرعية (الكلتاوية) عام ٢٠٠٨م، ليسانس الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر عام ٢٠١٢م، ماجستير بتقدير "ممتاز" في الفقه والقانون المقارن من قسم الشريعة الإسلامية في دار العلوم - جامعة القاهرة عام ٢٠١٧م، في رسالة بعنوان: "محمد قدري باشا وجهوده في الفقه الإسلامي"، قارنَ من خلالها القوانين المدنية لأكثر من ست دول عربية مع قوانين قدري باشا ومجلة الأحكام العدلية، له العديد من الكتب والمقالات في التربية والقضايا الفكرية، يشرف على تحرير مجموعةٍ من كتب الأستاذ كولن بنسختها العربية.

التسامح والحوار
في حركة فتح الله كُولَنْ (الخدمة)

يدعو فتح الله كُولَنْ دعوةً عالميّةً لإقامة حوار بين كلِّ طبقاتِ المجتمع تتمثّل في أن يقبل كُلٌّ غيرَه ويحترمَه، ويصوغ هذه الدعوة في:

"قبولِ الجميعِ الجميعَ على اعتقادِهِ ونمطِ حياتِهِ وجنسِهِ ولونِهِ ولغتِهِ ومهنتِهِ وثروتِهِ ومكانتِهِ في المجتمع ومنصبِهِ وعملِهِ دون تفريقٍ أو تمييزٍ بسبب هذه الأمور، بل وقبولِهِ بفكرِهِ ووجهةِ نظرِهِ وفلسفتِهِ وأسلوب معيشته".

وإن كان فتح الله كُولَنْ أطلق هذه الدعوة عام (١٩٩٤م)؛ إلا أنه يمكن تلمُّسها ورؤيتُها كموضوعٍ أساسٍ دائمًا ما تناوله في كتاباتِهِ وخطاباتِهِ، بل وفي حياته كلها، ومن ذلك قوله:

"افتح صدرك للجميع، افتحه أكثر ما تستطيع ليكن كالبحر، ولتمتلئ أنت بالإيمان وبمحبة الإنسان؛ فلا تُبْقِ خارج اهتمامك أيَّ قلبٍ حزينٍ إلا وقد مَدَدْتَ إليه يدك!...

صفِّقْ للأخيار بسبب خيرهم وفضلِهم، وكنْ ذا مروءةٍ تجاه المؤمنين، وكنْ ليِّنًا تجاه المنكرين إلى درجةٍ تذوبُ معها أحقادُهم ونفورُهم، وكن دائمًا كالمسيح عليه السلام في سماحته وفي أنفاسه التي كانت تحيي الموتى بإذن الله!

ادفع السيئة بالحسنة، و﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) فكل إنسان يعكس طبيعتَه وأخلاقَه بتصرُّفاته وسلوكِهِ، أما أنتَ فاختَرْ لنفسك طريقَ المسامحة، وكن كريمًا عالي الشِّيَمِ حتى تجاه من لا يعرفون قواعدَ السلوك وأسُسَ الأخلاقِ!...

أهم ما يميّز القلبَ الذي يجيش بالإيمان هو أنه يُحبُّ الحبَّ ويعادي العداوة، أما الذي يكره الجميع وينفر منهم فهو إما شخص أسلَمَ قلبه للشيطان أو أنه مريض نفسيًّا، أما أنت فليكن شعارك هو حب الإنسان والإنسانية..."[١].

إن التسامح والإخاء والحوار والعيش المشترك هي محاور رئيسة وركائز مهمّة قامت عليها حركة الأستاذ كولن، وسوف نتناول هذه المحاور من بُعدين اثنين:

أحدهما: البُعدُ المجتمعيّ، أي عملية التسامح والحوار داخل المجتمع التركي أولًا والعالَمَ ثانيًا.

والثاني: البُعدُ الدينيّ، أي عملية التسامح والحوار بين أتباع الديانات المختلفة في تركيا وفي العالَم بأسره.

١- التسامح والحوار على مستوى المجتمع التركي

لقد أَطلَق فتح الله كُولَنْ و"وقف الصحفيين والكُتّاب" دعوةً للتسامح والحوار فامتدّت وسرت إلى طبقات المجتمع كلِّها، وبينما كانت ألمانيا خلال حقبةٍ وجيزةٍ تنبعثُ مجدّدًا وتظهرُ على الساحة الدوليّة كعملاق عالميّ بعد أن خاضت الحربين العالميتين الأولى والثانية وانهارت فيهما، وتستقطب العمالةَ من تركيا ومن دُول أخرى دون أن تمرَّ عشرون سنة على انهيارها في الحرب العالمية الثانية؛ كانت اليابان إحدى الدول التي هُزمت في الحرب نفسها تظهر على الساحة العالمية كعملاق عالمي آخر أيضًا... والواقع أن تلك الدعوة كانت مهمة جدًّا بالنسبة لتركيا التي سقطت في وضع لا تُحسد عليه عالميًّا، وإنها وإن كانت قد أنجزت بعضَ الأشياء الجميلةِ الجديرة بالتنويه دون ريبٍ إلا أنها على مدى آخر ستةِ أو سبعةِ عقودٍ من الزمان أصبحت مسرحًا للشعارات والاحتفالات أكثر من أيّ شيءٍ آخر، ومن ثم فلقد رغب فتح الله كُولَنْ في تمدُّدِ دعوة التسامح والحوار وانتشارها حول العالم كلِّه كما تتمدَّد الأمواج في البحر، خصوصًا وأنها كانت في فترةٍ دارَ الحديثُ فيها عن "صراع الحضارات"، بل وربما أُعِدَّت الخطط لصنعه مسبقًا، وقد لاقت هذه الدعوة استحسانًا كبيرًا من قطاعات المجتمع التركي كلها مع وجود بعض الاستثناءات القليلة.

لـم يكـن الأسـتاذ كولـن بدعًا مـن المصلحيـن والحركييـن والعلمـاء والمفكرين، ولـم يبتكر فكرة الحوار والتسـامح أصلًا، بل سـبقه إليها علماء أجلاء سـابقون ومعاصرون، ولكن ما تميّز بـه كولـن هـو الإنجـاز والحركية والسـعي، فقد تجاوز النظريـة إلى التطبيق، وترجـم الأقوال إلى أفعـال، ممـا أنتـج نموذجًـا يُحتَـذى فـي إدارة الحوار وتكامل الحضارات وبَعثِ نسـمات السّـلم المجتمعـي، فكانـت الأمسـيات وحفـلات توزيـع الجوائز ومآدبُ الإفطـار تنظَّمُ لصالـح السِّـلْمِ الداخلي والصلح والتوافق بين شرائح المجتمع المختلفة، ومن ذلك على سبيل المثال:

- حفـلُ التعـارفِ الـذي نظمه "وقفُ الصحفيّيـن والكُتَّاب" في فندق "دَدَمـان (Dedeman)" نهاية يونيو/حزيران عام (١٩٩٤م).
- ومأدبـة الإفطـار التـي أقيمـت فـي فنـدق "بـولاد روناسـنس (Polat Rönesans Oteli)" فـي إسطنبول في الحادي عشر من فبراير/شباط عام (١٩٩٥م).
- وفي فندق "بُويُوكْ أَنْقَرَة (Büyük Ankara)" في السـادس والعشـرين من فبراير/شـباط عام (١٩٩٥م).
- وفي فندق "هِيلْتُونْ (Hilton)" يوم السابـع والعشرين من سبتمبر/ أيلول عام (١٩٩٦م).
- وكذلك اجتماع "يدًا بيدٍ من أجل مستقبلٍ سعيدٍ (Mutlu Yarınlar İçin El ele)" الذي أُقيم فـي قاعـة "لطفـي قيردار للمعارض والرياضـة الدوليـة (Lütfi Kırdar Uluslararası Sergi ve Spor Salonu)" في الثلاثين من سبتمبر/أيلول عام (١٩٩٦م).
- وحفل توزيـع "جوائز التسامح (Hoşgörü Ödülleri)" الذي نُظِّم في "قصر جيراغان (Çıra-ğan Sarayı)" في الرابـع من يناير/كانون الثاني عام (١٩٩٦م).
- وحفل توزيـع "الجوائز التشجيعية في مجال السلم الوطني (Ulusal Uzlaşma Teşvik Ödül-leri)" الـذي أُقيـم فـي فندق هيلتون في الخامس والعشـرين من ديسـمبر/كانون الأول عام (١٩٩٧م).
- ومباراة كرة القدم التي نُظمت لصالح البوسـنة في التاسـع عشـر من سـبتمبر/أيلول عام (١٩٩٥م).
- والتقدير الذي عبّرت عنه الكلمات والتعليقات والآراء التي ألقيت وصُرِّح بها في حفل المعايـدة الـذي أُقيـم في فندق "بِـلَازَا جواهر (The Cevahir Plaza)" يـوم الثالث من فبراير عام (١٩٩٨م)[٢].

هـذه الاجتماعـات جمعت أناسًـا من مسـتويات شـتى يمكـن اعتبارهم يمثِّلـون كلَّ قطاعٍ من قطاعات المجتمـع التركيِّ، وقد شارك في بعضِ هذه الاجتماعات أو في معظمها عددٌ كبير من النـاس مـن كلِّ فئـات المجتمـع تقريبًا بدءًا من رئيس الجمهورية حتى رؤسـاء الـوزراء والوزراء والنـواب ورؤسـاء البلديّـات وممثّلـي الأحـزاب السياسـية والبيروقراطيين، ورؤسـاء الجماعات الدينيـة المختلفـة، وموظَّفـي السـفارات الأجنبيـة، والعلمـاء مـن كل التخصُّصـات والصحفيّيـن والكتّاب والفنانين، ورجال الأعمال والتجّار...

وقـد عبَّـرَ المشـاركون عـن انطباعاتهـم ومشـاعرهم إمّـا فـي الاجتماعـات نفسِـها أو علـى أعمـدة الصحـف لاحقًـا؛ فكانوا جميعًا يتحدّثون عن القِيَمِ ذاتها مثل التسـامح والحوار والسـلم المجتمعـي، ومـن ذلـك مثـلًا "برثلمـاوس (Bartholomeos)" بطريرك أسـاقفة كنيسـة "فنر روم" إذ كان يهنِّئُ مؤسسي الوقف وأعضاءه باعتبارِهم خطوا خطواتٍ جادَّةً في طريق السلام والطمأنينة والمحبة، ويقول:

"إن فتح الله كُولَنْ يرمز في شخصيَّتِه وأفكاره للسلام والتسامح والقِيَمِ الساميةِ المهمّة بالنسبة لرؤساء الدول والإنسانية جمعاء".

أمـا "جـورج ماروفيتـش (Georges Marovitch)" ممثـل الفاتيـكان لـدى إسـطنبول فيُبَيِّـنُ: "أن العامـل والعنصـر الـذي يجذب الناس مـن كلِّ فئات المجتمـع بمسـلمِيهِ ومسـيحيّهِ ويهوديّهِ إلى مـكانٍ واحـدٍ هـو الحـبُّ الكامـن في قلب فتح الله كُولَـنْ، وأنَّ حبَّ الله هو سـلاح فتح الله كُولَنْ الوحيد، وأنَّه يشكل مثالًا عظيمًا بالنسبة للعالَم".

وقـد شـارك الكثيـر فـي الدعـوات التي قدمها الوقـفُ في إطار مـا نظَّمه من فعاليـات لصالـح الحـوار والتسـامح، ومن ذلك على سـبيل المثـال "خير الدين قراجـه (Hayrettin Karaca)" رئيس "الوقف التركي لحماية الثروات الطبيعية والتشـجير ومكافحة تآكل التربة (TEMA)"، والأسـتاذة الدكتـورة "نـور وَرْكِيـنْ (Nur Vergin)" و"عُزَيْـر غَرِيـح (Üzeyir Garih)" رجـل الأعمال، و"حسـن قُورْقْمَازْ جَانْ (Hasan Korkmazcan)" رئيس البرلمان التركي الأسبق، و"إسماعيل قَهْرَمَانْ (İsmail Kahraman)" من وزراء السـياحة الأسـبقين، والكاتب الصحفي الدكتور "طُوقْتَامِشْ أَتَشْ (Tokta-mış Ateş)"؛ كلُّهم كانوا يُصرِّحون بمشاعرهم الإيجابية وتقديرهم ومباركتهم لهذا العمل.

السلام والتفاهم السُّنِّيّ العَلَوي

إن لدعوة كُولَنْ إلى الحوار والتسامح بُعدًا تُشكّله المباحثاتُ واللقاءاتُ التي أجراها حول الغاية نفسها مع رجال الدولة ورؤساء الأحزاب التركية، بينما تشكل محاولاتُه ومساعيه للقضاء على التوتر السنّي العلويّ الذي أمَدَّتهُ سلبيات تاريخية بُعدًا آخرَ من تلك الدعوة.

ففي الوقت الذي عانى فيه العلويون في تركيا من هضم حقوقهم نادى كولن بـ"مشروع المسجد وبيت الجمع[٣] جنبًا إلى جنب"[٤].

وقد أجرى "أيوب جَانْ (Eyüp Can)" حوارًا مع فتح الله كُولَنْ طُبع لاحقًا بعنوان "جولة في الأفق (Ufuk Turu)" قال فيه كُولَنْ: "كما أن لدينا نحن -أي السنّة- جوانبَ يجبُ تشذيبها وإعادة تشكيلها، فإن لديهم هم -أي العلويين- كذلك بعضَ الجوانب يجب تشذيبُها وتشكيلها من جديد، نعرف أكاديميين من السنة أجرَوا دراساتٍ حول العلوية، يُلاحظ -بالنظر إلى آرائهم- أن العلويَّة تُشَكِّلُ مصدرًا غنيًّا في التميُّزِ الثقافيّ، لذا فمن الواجبِ الاستفادةُ من تلك الثقافة، لا تقويضها".

وإلا فإنه يلفت الانتباه إلى مجموعة من السلبيات حدثت لا سيما في تاريخنا الحديث، ويُحذِّرُ كُولَنْ من اجترارِ سلبيّاتِ الماضي، ويتحدَّثُ عن ضرورة أن يتعمّقَ السنة والعلويُّون في عوالم بعضهم الداخلية وأعماقِهم الروحيّة، ويقترح كي يتحقق توافقٌ وتفاهمٌ وترابطٌ أكثرُ حميميّةً وبقاءً وسلامةً أن يرجع العلويون إلى الكُتب حتى ينتقلوا من الثقافة الشفهية -التي هي معرَّضة دائمًا للتغيير والتحريف على أيدي الجاهلين والمغرضين- إلى الثقافة الكتابية فتكتسب ثقافتُهم شخصيةً وهوية علمية، ومن ثم توضع كتبُ ومؤلفات الرموزِ والروّاد لدى العلويين أمثال: "الحاج بَكْتَاشْ" و"يونس أَمْرَه" و"نيازي مصري" في بيوت الجمع، وفي المقارّ التي يتردّد عليها الشعب وقاعات المطالعة والمراكز التعليميّة أيضًا، كما يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك؛ فيقترح على واحدٍ من كِبار العلويّين وكان قد تعرَّف عليه في "إزمير" والتقى به -يقترح عليه- أن يفتتِحا سويًّا، ويُنْشِئا "بيتَ جمعٍ" وجامعًا جنبًا إلى جنبٍ.

وبينما يُعَرِّفُ كُولَنْ العلويّةَ الحقيقية المنشودة بأنها "اتِّباع سيدنا علي كرم الله وجهه في أعمالِهِ وتصرُّفاتِهِ وفِكرِهِ، والاقتداء به عبر تَمَثُّلِ جوانبه السامية العُلْويّة"، فإن قسمًا من العشائر التركية القاطنة في الأناضول تولَّدت لديهم -إلى جانب إعجابهم بشجاعة سيدنا عليٍّ وفتوته- فكرةُ الانحياز للعلوية نتيجة الظروف الاجتماعية والثقافية للمناطق التي نشؤوا فيها، وهذه الحقيقة تظهر وتتَّضح عند تناول الموضوع من الناحية النفسيّة والمجتمعيَّةِ، علاوةً على ذلك

يلفت كُولَنْ الانتباهَ إلى أن المذهب السنّيّ لم ولن يكون لديه أيَّةُ مشكلةٍ على الإطلاق مع الفهم العلوي الذي تحلَّق ودار حول سيدنا عليٍّ وآل البيت كما تدور الهالة النورانيّة حول البدر.

ويحرص كولن على ألا تُفْهَمَ أفكارُه وأهدافه النبيلة فهمًا خاطئًا، فيكرر أن مثل هذه الأنشطة في سبيل الإخاء لا يُقصَدُ من ورائها السيطرة أو الزعامة فيقول: "إننا لا نطمح حتى إلى زعامةِ قريةٍ، وكلُّ هَمِّنا وغايتُنا الوحيدةُ هي: أنْ يُسمعَ اسمُ الله واسمُ النبي ﷺ في كلّ أرجاء المعمورة، وأن تنهلَ الإنسانيّة التي خُلقت مكرَّمةً من مناهل الفضائل التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، وتُبلَّغَ القلوبُ اسمَ الله الجليل؛ فيرفرف فيها كالراية، وإننا نطرد من أذهاننا كل الأفكار التي تخالف هذا، ونطرحها إلى أبعد ما يكون، بل وإن أقبلت علينا الدنيا بكل مفاتنها فإننا نَركُلُ السلطنة الدنيوية بأطراف أقدامنا، لأنّنا نسعى إلى اقتفاء أثر سيد السادات محمدٍ خطوةً خطوةً، ونتأسّى به قولًا وعملًا، إذ رفض الدنيا التي تمثلت له، يقول ﷺ: "**هَذِهِ الدُّنْيَا مُثِّلَتْ لِي فَقُلْتُ لَهَا إِلَيْكِ عَنِّي!**"[٥][٦].

ولا شكَّ أن فتح الله كُولَنْ حين يُنادِي في المجتمع بحركةِ تسامحٍ وحوارٍ يرجو لها الانتشار في العالم كله، وهو منذ ذلك الوقت يستشرف الامتحان الشاق الذي ستتعرض له الأمة في وحدتها وتكاتفها، فيرشدها ويبين لها طريق الخلاص فيقول: "السنواتُ القابلة ستكونُ عصرَ مودَّةٍ وتسامح؛ فسوف نحتضن الجميعَ بالمحبَّةِ ونحقِّقُ -إن شاء الله- شيئًا الدنيا في أَمَسِّ الحاجةِ إليه، إلا أنني قلق من شيءٍ؛ هو أن قطاعًا سيواصل إفسادَ الطمأنينة والسلم المجتمعي عازفًا على أوتارِ الضَّعفِ فيه، ومُشعِرًا أفراد هذا المجتمع بأنه يمتلك قوَّةً تبطش، بعدها سَيُعِدُّون فخًّا وكمينًا للإيقاع بالتسامح، ومن الواضح أننا سوف نتعرَّض لاحقًا لامتحان بأشياء صعبةٍ جدًّا، وسوف تتصدّى أمَّتُنا لأعتى الخطوبِ بتحمُّلِ بعضِها وتكاتُفِها فيما بينها، ونَكَزُّ على أسناننا في هذا الامتحان، ونتمثَّل الحِكمةَ القائلة: "قابل الضارب بالصفح والسابَّ بالعفو"، ونحتضن كلَّ شيءٍ بمودّةٍ وشفقة دون أن نحقد أو نحمل ضغينة لأحد، ونسير إلى المستقبل متحابين"[٧].

وأجدني بينما أخطُّ هذه الكلمات أستشعر سؤالًا يدور في عقل القارئ على النحو التالي: بعدَ أن حدَّثْتَنا عن السلام والتسامح والحوار لدى كولن؛ ما هي مساعي كولن في الحوار مع السلطة الحاكمة لتركيا الآن بعد أن اتهمَتْه بمحاولة الانقلاب في ١٥ يوليو/تموز (٢٠١٦م)؟

والحقيقة أن الجواب على هذا السؤال يحتاج إلى مقال مستقلّ، ولكنني لا أريد أن أترك القارئ في هذه النقطة الحساسة دون جواب، لذا أقول باختصار شديد:

إن الحوار والسلام والتسامح الذي أراده الأستاذ إنما هو بين الفرقاء من الناحية الفكرية أو الإثنية أو الثقافية أو العرقية.. التي لا ذنب للإنسان فيها، أما ههنا فالأمر مختلف، فالخلاف

سياسيٌّ بامتياز وهو منطلِقٌ من الظلم والتجبر والفساد السياسي والخروج على القانون، ومن مبادئ الخدمة الالتزام بالقانون، وعدم مجاراة الظالم.. ومع ذلك فقد حاول كولن مرارًا وتكرارًا أن يفتح قنوات الحوار ودعا إلى تحكيم العقل والمنطق وعندما سألَتْه الصحفية نهال طوسي عما إذا أتيحت لك فرصة التحدّث إلى الرئيس أردوغان ماذا ستقول؟

أجاب: "لا أعتقد أن أردوغان سيعير اهتمامًا لما سأقول له.. حاولتُ في السابق مرارًا أن أوصل صوتي إليهم عبر خطابات أرسلتُها لهم، حاولتُ من خلالها أن أشرح لهم إلى أي مدى وصل تصنيف الحكومة للناس وتمييزهم على أساس انتماءاتهم الثقافية والدينية والأيديولوجية، وخطابات أخرى قدمت فيها مقترحات عملية لحل أزمة المواطنين الأكراد.. لكن لم يأخذوا أيًّا من هذه التوصيات على محمل الجد. اليوم، أدعو الله فقط أن يهديهم إلى الرشد حتى لا يعرضوا مستقبل هذه الأمة العظيمة لمخاطر وخيمة لا يمكن تلافيها[٨]".

لكنه مع ذلك ومع محاولاته المتكررة لم ييأس، بل ترك في قلوب أتباعه وصيةً تُكتَبُ بماء الذهب قال فيها: "قد يُسيء لكم البعضُ بإساءات لا يَتصورُ عقلٌ حدوثَها، ويضع الأشواك والأحجارَ في طريقكم حتى يمنعكم من السير، ويقوّض الجسور التي تمرون عليها ليعرقل مسيرتكم، ويرغب في أن يعزلكم كلّيةً عن المجتمع، ولكن إن كنتم تريدون أن تكونوا صروحًا للفضيلة وتصِلوا للوفاق والاتفاق فعليكم أن تتغاضوا عن كلِّ هذا وتستمرُّوا في طريقكم قائلين: "لا شيءَ يدوم!"، فإن انهدَمَت الجسورُ التي تسيرون عليها فأَقيموا جسورًا بديلة جديدة في أماكن أخرى، واستمروا في طريقكم بفضلٍ من الله وعنايته حذِرينَ من الوقوعِ في الخلاف، حتى وإن كان الآخرون قد اتَّخَذُوا الخلافَ شعارًا لهم.

سيأتي يومٌ يَفِدُ عليكم فيه بعضُ مَن كانوا يسيئون إليكم فيُعربون عن ندمهم، وحينئذ يجبُ أن يجدوكم على ما كنتم عليه، فإن طلبوا الاعتذار منكم فتعاملوا معهم بشهامة ومروءة، وقولوا لهم: "معاذ الله، لا علمَ لنا بهذا، إننا دائمًا نشعرُ أنكم إلى جانبنا في نفسِ الخندقِ على الدوام".

نعم، اِفْعلوا هذا رغمَ أن الواقعَ يشهدُ بأنهم كانوا قد ابتعدوا عنكم فراسخ عديدة نتيجة الحسدِ والغيرةِ؛ وبأنَّهم دائمًا ما كانوا يؤلّبون الغير عليكم قائلين: "اقطعوا عليهم طريقهم، ونالوا منهم، ولا تعترفوا لهم بحق الحياة!"، وبأنهم حينما كانوا يرتكبون هذا الظلم لم تكن بحوزتهم حججٌ معقولة تقرّهم على ما يفعلون، بل كان دافعهم إلى هذا الحسدَ والغيرةَ ليس إلا"[٩].

٢- حركة الحوار بين الأديان أي بين أتباعها

إحدى الحركات التي بدأها فتح الله كُولَنْ للمرة الأولى في تاريخ تركيا هي محاولتُه نقل حركة الحوار والتسامح إلى حوارٍ بين أتباع الأديان السماوية بصفة خاصة: الإسلام والمسيحية واليهودية داخل تركيا وخارجها، وقد دار حيالَ هذهِ المحاولةِ جَدَلٌ، ولا سيما من قِبَلِ المسلمين، وهي خطوةٌ يجب تناوُلُها بشكلٍ جيّدٍ على سبيل النقد الذاتي.

وقد أطلقَ فتح الله كُولَنْ دعوتَه للحوار والتسامح في فترةٍ تاريخيّةٍ ذهبيّةٍ؛ ينبني أحدُ وجهَيها على القيمِ الدينيةِ الساميةِ وما ستضطلعُ به من دور في تشكل عالمٍ مبنيٍّ على السلام والطمأنينة والهدوء والاحترام المتبادل والتفاهم، بينما في الوجهِ الآخرِ منها تقريرُ "هينتغتون" الذي يُقدِّم الإسلامَ والعالم الإسلامي والجغرافية الإسلاميّة كلَّها -المصوّرة والمقدّمة على أنها قطبٌ مُعادٍ- على أنَّها مجال للصراع بين الحضارات الموجودة على حدود روسيا مع البلاد الإسلامية بصفةٍ خاصّة، وكذلك هناك الحركات الإرهابية الموجّهة لإظهار المسلمين على أنهم أعداءُ القيم الإنسانية والحُرّيات والديمقراطية وحقوق الإنسان الأساسية، وكُولَنْ على وعيٍ تامّ بأن مجموعات رؤوس الأموال والمصالح المتحالفة مع مجموعة من مراكز القوى المسيطرة بقدر كبير على العالم وفي البلاد الإسلامية أيضًا سوف تستاء وتنزعج من مناخٍ يسوده الاحترامُ المتبادَلُ والتوافقُ والتسامح والحوارُ الدائمُ المدعومُ بالقِيَمِ الدينية، وقد صرحوا بمخاوفهم تلك -كما سبق آنفًا- منذ أن خَطَتْ حركةُ الحوار والتسامح التي أطلقها فتح الله كُولَنْ في تركيا خطواتها الأولى؛ حيث إنَّ تحميلَ الجرائم المفجعة المرعبة للمسلمين في بعض الدول، ومحاولةَ البعضِ في تركيا وَأْدَ مبادرةِ فتح الله كُولَنْ للحوار والتسامحِ وهي في مهدها؛ ومناخَ الحرب الذي ساد مؤخّرًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول الذي لا تُعرَفُ أبعاده العالميّة؛ كلُّ هذا كشفَ كم أن هذه المبادرة أو الحركة من الأهمّية والضرورةِ بمكانٍ يستوي مع كونه محقًّا في مخاوفه.

لقد شاهد المجتمع التركي أوّلًا ثم العالم ثانيًا كيف اهتم الأستاذ فتح الله كُولَنْ بفكرة الحوار والتواصل والتفاهم بين التيارات الفكرية المختلفة على المستوى المحلي داخل تركيا، وعلى المستوى الإقليمي والدولي بين أتباع الديانات وأبناء الحضارات والثقافات المتعددة، ودعا إلى نهج التعارف والاحترام المتبادل والتسامح والتعايش، ونبذ التعصب وإدانة العنف. وعُرف في تركيا وفي العالم بـ "داعية الحوار والتسامح والتوافق"[١٠]، ولقيت دعوته هذه صدى إيجابيًّا واسعًا في تركيا وخارجها، ووصلت إلى ذروتها في الاجتماع الذي تم عقدُه في الفاتيكان مع البابا.

ولا يرى كولن أي مجال للخوف من التقاء الآخر ومواجهته؛ لأنه مقتنع بعقيدته واثق منها مؤمن بقدرتها على إقناع أتباع الديانات الأخرى بوجوب احترامها.. ويؤمن بأن الالتقاء سوف يصب في مصلحة العقيدة الأكثر قدرة على الإقناع في ضوء معايير العقل..

الحوار بين أتباع الديانات لا يعني توحيد الأديان ولا تنازُلَ أحد الأطراف عن قيمه ومعتقداته للالتقاء في نقطة مشتركة، وإنما يعني أن يقبل كلُّ شخص الآخر كما هو.. أي المحاور لن ينسلخ عن قيمه لأجل حوار ناجح، وإنما غايةُ الحوار هي تحقيق "الحرية الكاملة" لممارسة وتبليغ المعتقدات على أساس السلام..

لقد أطلق مصطلحًا خاصًّا وهو (Hoşgörü) وقد يُتَرجَم إلى العربية بمعنى التسامح، إلا أن الدكتور الأمريكي "جون باول" -المدرّس بالمدرسة اللوثرية في فيلادلفيا- يرى أن هذه الكلمة (Hoşgörü) تحمل معنى أكثر مما قد ينقله هذا المعنى الفاتر (أي التسامح)، فالتسامح شيءٌ يشبه التعددية القائمة على المبادئ، حيث يعيش الشخص المتسامح بكل سلام مع أي فرد مع اختلاف تقاليده، ولكنه يتيح للآخرين الوفاء بالتزاماتهم العميقة التي قد تختلف اختلافًا كبيرًا عن التزامهم الشخصي.. أما التعددية التي دعا إليها كولن وتبنتها حركته (Hoşgörü) فلم تكن مجرد تعددية نسبية؛ حيث يكون كل رأيٍ مساويًا في الصحة لأي رأي آخر، وإنما راهنت على أن الإسلام وفّر أساسًا يمكن من خلاله أن تتحول الاختلافات إلى تعاون مثمرٍ من خلال الحوار[١١]، كما قال النورسي: "لا يمكن الوصول بنجاح إلى الأشخاص المتحضرين إلا من خلال الإقناع".

ويرى فتح الله كُولَنْ أن العالم أصبح -بعد تقدم وسائل الاتصالات- قرية صغيرة؛ ولهذا فإن أي حركة قائمة على الخصومة والعداء لن تؤدي إلى أي نتيجة إيجابية، وأنه يجب الانفتاح على الإنسانية بأسرها، وإبلاغ العالم كله بأن الإسلام دِين الرحمة، ويدعو إلى الأخوّة بين بني البشر، وأن المسلم لا يمكن أن يكون إرهابيًّا وأن الإرهابي لا يمكن أن يكون مسلمًا. وقد ذكر مرارًا وتكرارًا أن هناك مجالات واسعة للتعاون والتعاضد بين المسلمين وبين أبناء الأديان والثقافات الأخرى لتأسيس سلام واستقرار على مستوى العالم[١٢].

لقد بذل جهدًا واسعًا في سبيل رفع الشعور العام لدى الناس وجعلهم يتقبلون فكرة الحوار والتسامح والعيش المشترك، وذلك بهدف فتح القلوب لتقبل الحق والحقيقة، حتى إنه ليقول: أرغبُ في الحوار مع الملحدين حتى وإن سَبُّوا القِيمَ التي نُقَدِّسُها مدى الحياة، المهمّ هو أن لا يموتوا ويرحلوا عن هذه الدنيا إلا وقد آمنوا واهتَدوا.. والحاصلُ أنه لا مكان في عالمنا للدعاء بالشر على أحدٍ[١٣].

حتى إن رجل الأعمال اليهودي "جاك كامهي (Jak Kamhi)" -العضو السابق في البرلمان- قال: "الواقع أنني لا أتوقَّع شيئًا غير ذلك من الأستاذ فتح الله؛ إنه يسير في ذات الطريق الذي سار فيه أجداده على نحو لائقٍ وجميلٍ؛ فقد أحبّ الأتراكُ الناس جميعًا واحترموهم على مرِّ العصور؛ فلم يخوضوا حروبًا دينيّة، ولم يمارسوا قمعًا، وإنما فعلوا العكس؛ فقد مكّنوا الناس من نَيل حرّيّتهم، لقد ذهبتُ إلى المجر، فكانوا يمتدحون الأتراك باستمرار، وذهبت إلى رومانيا فكانوا يبادلونهم نفسَ الحبِّ أيضًا، إنني أتابع منذ وقت طويل مبادرة الأستاذ فتح الله كُولَنْ "التسامح"، وأباركها... وأضيفُ أنَّ أجدادي لو لم يروا ذلك التسامح ويحظوا به من العثمانيين؛ لما كنتُ أنا موجودًا الآن"[١٤].

الأدلة الشرعية

الأدلة الشرعية على مشروعية الحوار كثيرة ومنثورة في بطون الكتب، وقد ساقها المجيزون بكثرة، ورد عليها المانعون، ثم دفع المجيزون تهمَ المانعين... إلخ، ولسنا في معرضِ سوقِ ذلك، فالأستاذ كولن يزيد على مجرد إجازة الحوار بأنه يرى جذورَ الحوار والتسامحِ ضاربةً في جوهر الإسلام؛ فيقول: "مِنَ العبث البحثُ عن التسامح بكلِّ أعماقه وأبعاده الحقيقيّة بعيدًا عنّا؛ فالتسامح سمتُنا هو ما يشكّل فكر مولانا جلال الدين الرومي ويونس أمره... وإن أدركنا المعنى الدقيق الكامن في كلمات حبيب الله سيدنا محمد ﷺ استطعنا فهمَ ما هو أساس ديننا، إنني أؤمن أن الدنيا -التي اختلَّ نظامُها- ستدرك الحقيقة ولو بعد أن تتخبَّط يمنةً ويسرةً، وأسألُ الله تعالى أن يُبنى المستقبل على المحبة والتسامح، لا على الحقد والكره والحدة والعنف"[١٥].

إنه يفهم التسامح من الناحية العقدية على أنه رؤية الآخر كما يراه الله، والله يرى كل شيء بعين الرأفة والرحمة[١٦].

وعندما يقرأ قول الله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ٦٤) فإنه يتناوله بالدرس والشرح فيقول: "اتخاذُ موقف ليّن تجاه أهل الكتاب أمرٌ من أوامر القرآن.. ليس أهل الكتاب فحسب، بل أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يقول كلامًا لينًا لفرعون: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ (طَهَ: ٤٤). لذا فلا مكان أبدًا في الإسلام للكلام الخشن أو اللوم العنيف للناس في الدعوة إلى الله.

وهذه الآية أنموذج بليغ للكلام اللين القريب من القلوب، والكلام الجذاب في الدعوة. فإن تخيلنا الإسلام قلعة محاطة بأسوار تمثل حدود الله، فلا شك أن هناك أبوابًا عديدة لها

وهناك طرق كثيرة بعدد الخلق تؤمن الوصول إلى هذه الأبواب. ويقوم الإسلام بأسلوبه الخاص باحتضان الناس في أي طريق من هذه الطرق وفي أي نقطة من نقاطها لكي ييسر لهم الدخول من أحد هذه الأبواب. إن عدم وضوح هذا التدرج، أو عدم إدراكه قاد البعض في السابق ولا يزال يقودهم إلى أخطاء معلومة.

وهذه الآية تستقبل أهل الكتاب في إحدى نقاط هذه الطرق وتقترب منهم بوجه بشوش وكلام حلو جميل وتقول لهم: "تعالوا إليّ!... هلموا إليّ!" وعندما تخاطبهم هكذا تقول لهم: "إن ما أدعوكم إليه ليس جديدًا عليكم، وليس شيئًا تجهلونه، بل هو مما عرفتموه وأنستم به قبلنا، ولكن يجوز أنكم نسيتموه، أو تذكرتموه بشكل خاطئ". ومثل هذه الدعوة تؤسس جسرًا بيننا وبين أهل الكتاب، وتلمس نفوسهم من جانب يأنسون به. وهذا الأسلوب في الدعوة إلى الإسلام مهم جدًا، وتستطيعون أن تطلقوا عليه التعبير الشائع في هذه الأيام وهو "أسلوب الحوار". أجل، إن دعوة الإسلام أهل الكتاب إلى نقطة مألوفة لديهم يمكن تلخيصها في كلمة واحدة مختصرة، لأن القرآن طلب منهم شيئًا واحدًا فقط، وهو اجتياز هذا الجسر المشاهَد أمام الأنظار والوصول إلى هذا الباب. فإذا وضعنا كل شيء جانبًا فإن كلمة "سواء" وحدها تعبر عن هذا المفهوم الدقيق للين وسعة الصدر والرغبة في تشييد الجسور بيننا وبينهم"[١٧].

وهو عندما يتناول شرح البسملة ويصل إلى قوله: "الرحمن الرحيم" يعتبر أن تقديم هاتين الصفتين على كلّ صفاته تعالى في البسملة يوحي بأنهما بمثابة نواة الإسلام، وأكثر رسولين يمثّلان ذلك ويجسّدان هاتين الصفتين في الرسل السابقين هما سيدُنا إبراهيم وسيدُنا عيسى ﷺ، وقد فاقهما في تمثيل هذا وتجسيده سيدُنَا محمدٌ، المرسلُ رحمةً للعالمين، ونظرًا لأن المدنيّةَ سادت في حقبتنا الزمنيّة -إلى حدٍّ ما-، والتي تُعْلِي وترفعُ -ولو نظريًّا على الأقلّ- من شأن القيمِ الحضاريّة مثل: الحريات وحقوق الإنسان الأساسية والتسامح واحترام الإنسان؛ فإن فتح الله كُولَنْ يتبنّى الرأي المدافع عن ضرورة قيام العلاقة مع البشر في إطار الإقناع، أي في إطار الحوار والعلاقة الطيّبة المتبادلة، وبعبارة أخرى: هو يُدافعُ عن وجهةِ النظر التي تُحَتّمُ إعلاءَ الجانبِ الإبراهيميّ والعيسويّ من الإسلامِ، والأستاذ فتح الله يطلق على هذا "الروح المحمدية"[١٨].

ودائمًا ما يستشهد بدعاء النبي يوم أحد، فعلى الرغم من إصابته بجروح غائرة وشج رأسه وكسر رباعيته إلا أنه لم يستجب لطلب بعض الصحابة بالدعاء على العدو ولعنِه، بل دعا لهم قائلًا: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[١٩].

نقد المتشدّدين والمتزمّتين

ثم يمضي كولن بكل شجاعة وصراحة إلى نقدِ أولئك المتزمّتين المتمسّكين بظاهر بعض النصوص، الحائزين على بعض المكانة لدى الأمة، المحتكرين رأيَ نسبةٍ كبيرةٍ منها، فيقول: "إن المنطقَ أو الفهمَ الراغبَ في رؤيةِ غيره في كفرٍ وضلالٍ أو اعتبارهم مذنبين منطِقٌ لا يُحقّقُ أيَّ قيمةٍ فضلًا عن أنّه لا يأتي بِخَيرٍ، كما أنه فهمٌ خطير، وعلى كل مجموعة تسيرُ في طريق الخدمات الإسلاميّة أن تنشَغِلَ بالتعريف بمنهجها الخاصّ وبيانه والتوصية بالخير والعيش بحبّه، وألَّا تُضمِرَ العداوةَ للمجموعات الأخرى، بل عليها أن تعتبرها إخوةً لها وتُقدِّر فضلَها ونجاحاتها، وألّا تُوجّه انتقاداتٍ مُنفِّرةً ولاذعةً، ولا سيما أنه لا ينبغي أن يُنشدَ التقديرُ والتبجيل في القضاء على الآخر وتحقيره.

إنَّ المرشدين والرواد الذين إن أخطؤوا استُعظِم خطؤُهم بسبب وضعهم الاجتماعي عليهم أن ينأَوا بأنفسهم عن اتهام الآخرين بالكفر والضلال نأيًا تامًّا.

ينبغي لكلِّ مسلمٍ أن ينظُرَ إلى الكون على أنه مهدُ الأخوّة، ويبحثَ عن سبُلٍ لإقامةِ العلاقات مع كلِّ ما هو موجود فيه، ويكونَ ليّنَ الجانب دائمًا لأهل الإيمان وينفتحَ عليهم".

إنّ الأستاذ كولن يرى أن المسلمَ الواثقَ في إسلامِهِ وعقيدتِهِ في ظلِّ عالَمٍ يسودُهُ العلمُ مستقبليًّا بمعايير أكبر وأعظم تُحوِّلُه تمامًا إلى عصر المعرفة، وفي أنَّ الإسلامَ يجعل العقلَ والعلمَ يُقرّان بأحكامه جميعها؛ إنْ أقامَ حوارًا مع أتباعِ الديانات الأخرى؛ فإنَّ فعلَه هذا ليس تلطُّفًا منه، ولا عملًا يستوي القيام به من عَدَمِهِ، بل يمكننا القولُ إنَّه وظيفةٌ حتميّةٌ وضروريّةٌ بالنسبة لمسلم يُدرِكُ معنى الإسلام ووظيفتَه وواجبَه إزاء دينه على وجه البسيطة، والمسلمون الذين عاشوا حتى اللحظة خوفًا وقلقًا من "أن يتخطَّفَهم الناس" لعقدة كامنة في عالم اللاوعي عندهم، ورأوا الاستمرار في الدفاع هَوَسًا بأن الأعداء يطوّقونهم من كلِّ جانبٍ وكأنه ركنٌ من أركان الإسلام؛ حانَ الوقت أن يَخرُجُوا من قمقمهم الذي حبسُوا هم أنفُسَهم فيهِ، ويدركوا ما الذي يجري في العالم الخارجي.

ثم يضع كولن شرطًا في غاية الأهمّية للتخلُّصِ من كلِّ ذلك؛ إذ يكفي ألا يجعل المسلمون الإسلامَ وسيلةً لرغباتهم في إثبات الذات، وسببًا للغرور بالانتساب إليه والتعالي على الآخرين، وسُلّمًا يصلون به إلى أهدافهم الدنيويّة أو السياسية، وألا يروا أنفسهم شعب الله المختار، وباقي الأمم الأخرى حصب جهنم، وعليهم أن يتبنَّوه ويعتنقوه ويتمثَّلوه ويُقَدِّمُوه كدينٍ، وأن يعيشوا أمة بين الأمم، لا أمة فوق الأمم.. ولا شكَّ أنَّ هذا يتحقَّقُ بتغييرهم الصورةَ التي كوّنوها في

أذهانهم عن الإسلام حاليًا؛ فهي صورةٌ الإسلامُ منها بَرَاءٌ كبراءةِ الذئب من دمِ ابن يعقوب، ويستحيل لها أن تُعَبِّرَ عنه أصلًا.

ورغم أن الغرب يقدم للمجتمع غالبًا صورة متحيزة عن الإسلام تضرُّ كثيرًا بمصالح جمهور المسلمين، لكنّ كولن لم يُعادِ ولو تعريضًا في خطبه أو كتاباته أيّ شعب أو أمّة، ولم يقف عند لوم الناس لجهلهم بالإسلام، بل جاهد للتعريف برسالة الإسلام الصحيحة وللحوار بين الأديان والحضارات، وبهذا الحوار أثبت مدى إخلاصه في محاولته جمع أبناء الديانات على طاولةٍ واحدة للنهوض بالإنسانية كلها، ولتنوير أرواح البشر جميعًا دون نظر إلى العرق أو الدين أو النوع[٢٠].

ويدعمُ كُولَنْ مبادراته للحوار بتطبيقاتٍ من القرآن الكريم والسنَّةِ المطهَّرة والتاريخ الإسلاميّ، وقد جُمِعَت هذه التطبيقات في كتاب "مناخ التسامح والحوار في أحاديث فتح الله كُولَنْ وكتاباته (Fethullah Gülen'in Yazılarında ve Sohbetlerinde Hoşgörü ve Diyalog İklimi)" الذي أعده "قُدْرَت أُونَالْ (Kudret Ünal)" و"سَلْجُوقْ جَامْجِي (Selçuk Camcı)"، وقد أدلى فتح الله كُولَنْ بتصريحٍ إلى إحدى المجلّات تحدَّثَ فيه عن الأمور التي تدفعه للحوار فكان ممّا قال: "خُلِقَ الإنسانُ كريمًا، وهو يسعى دائمًا خلفَ الأشياء الجميلة والحسنة، إلا أنه تنهال على رأسِهِ -أحيانًا- أحجارٌ لم يكن يتوقَّعها أو ليس له دخل فيها، وما في خلقة الإنسان من كرم وحسن هو ما يحثُّني ويدفعُني إلى إجراءِ حركةِ حوارٍ على مستوًى عالميّ، ولديَّ أملٌ واعتقادٌ تامٌّ بأن الإنسانيَّةَ المعجونةَ خميرتُها وجوهرُها بالخيرِ والجمالِ سوف تَصِلُ وتُكمِلُ ذاتَ يومٍ هذا الخطَّ الذي تُحَتِّمُه وتستوجبُه تلك الخميرة، وأنا على اقتناعٍ بأنَّ الإنسانية السَّئِمَة حاليًا من الحروب والصراعات والدماء المسفوكةِ والمظالم المرتكبةِ مستعدَّةٌ لحوارٍ وسِلْمٍ عالميّ، كما أنَّ المناخ مهيَّأٌ لحوارٍ من هذا النوع، وإننا إن لم تَزِلَّ خطواتُنا ولم نَضِلَّ طريقَنا لفي أنسبِ وقتٍ وأسنَحِ فرصةٍ من أجل تحقُّقِ هذه الغاية السعيدة".

ومن الواضح تمامًا استحالةُ أن يتحقَّق أيُّ شيءٍ إيجابيٍّ في ظلِّ التصرُّفِ بارتكاسيةٍ والتركيزِ دائمًا على الأعمال العدائيّة والوقوفِ في مواجهة الآخرين وفي ساحة الصراع، ومن هذه الناحية فإنّ من مقتضى الفِطْرةِ في هذا العصرِ الذي تتصدَّرُ فيه القِيَمُ الحضاريَّة أن يستطيعَ الإنسانُ الذي هو مخلوقٌ اجتماعيٌّ حلَّ قضاياه ومشكلاته بالحوار فقط، وثَمَّةَ حقيقةٌ دائمةُ الطَّرحِ بالنسبةِ لنا منذُ القِدَمِ، لم يكتشفها العالم إلا عقبَ انهيار "الستار الحديدي"؛ هي أنَّ الأديانَ ستكونُ صاحبةَ الكلمةِ في المستقبل، وهذا هدفٌ طبيعيٌّ يسيرُ نحوَهُ البشرُ.

والإسلامُ والمسيحيَّة في الوقت الراهن هما أكثرُ الأديان أَتْبَاعًا في العالم، كما تتمتّع البوذيّة والهندوسيّة أيضًا بِعَدَدٍ كبير من الأتباع، أما اليهودية فإنها مؤثِّرَةٌ وإن بَدَتْ صغيرةً بالنظر إلى عدد المنتسبين إليها، ولذلك فإن حوارًا يبدأُ بين هذه الأديان عند نقاط الاتّفاق أوّلًا سيُسهم إسهاماتٍ مهمّةً في تحقُّقِ بعثٍ وصُلْحٍ وسِلْمٍ عالميٍّ، وإننا لا نرتاب من قِيَمِنَا الخاصَّة، وكما أننا لا نَعرِضُ على أحدٍ الانضمامَ إلينا أثناءَ عمليّة الحوار؛ فلا يخطرَنَّ بِبَالِ أحدٍ أنْ يعرض علينا مثل ذلك؛ فقد دعا القرآن الكريم أصحاب تلك الديانات إلى الحوار قبل أربعةَ عشرَ قرنًا، إلا أنَّ العصورَ الفائتة كانت -نتيجة للزمان والظروفِ- عصورَ قتالٍ وحروب في الأكثر، أمّا مؤخّرًا فالزمان زمانُ انشراح الأذهانِ والقلوبِ، زمانُ التلاحُمِ والتواؤمِ في ظلِّ الاحترامِ والمحبَّةِ المتبادلة، ومقارنةُ الوضع ما قبل الحديبية مع العامين المنصَرِمَين بين الحديبية وفتح مكة تعطينا طرفَ الخيط اللازم الإمساك به في هذا الموضوع؛ فقد أطلقَ القرآنُ الكريمُ لفظَ "فتح" على صُلْحِ الحديبية، قبل فتح مكة؛ إذ أُغلقت أبوابُ الصراع بصلح الحديبية، وانفتحت أبواب القلوب، فكان هذا هو الفتح الحقيقي"[٢١].

الفعاليات

التقى فتح الله كُولَنْ بالبطريرك "برثلماوس" رئيسُ أساقفة إسطنبول وروما الجديدة كأوَّلِ خطوةٍ في طريق الحوار بين منتسبي الأديان، وبما يصبُّ في صَالح مبادَرَته في إجراء الحوار وإقرار التسامح في تركيا، ومما لا شكَّ فيه أن هذا اللقاء كانت له أصداءٌ عظيمةٌ.

فبينما كان كُولَنْ يتباحثُ مع برثلماوس طالبَ الأخيرُ بإعادةِ فتح مدرسة الرهبان في جزيرة "هَيبَلي أضه (Heybeliada)"، وفي المقابل اقترح عليه كُولَنْ أن يستخدم نفوذَهُ لدى الحكومة اليونانية من أجل إنشاء مدرسة تركيّة في "سلانيك".

لقاء الفاتيكان التاريخي

بعد أن التقى فتح الله كُولَنْ مع برثلماوس بَطرِيَرك الروم التقى في صيف عام (١٩٩٧م) بالزعماء الدينيين للطائفة الأرمنية والسريانية القديمة والطائفة اليهودية، والتقى كذلك بالأستاذ الدكتور "سيدني غريفث (Sidney Griffith)" رئيس قسم الدراسات المسيحية الشرقية بالجامعة الأمريكية الكاثوليكية في أمريكا صيف (١٩٩٧م)، والكاردينال "أو كوننور (O' Connor')" أرشيدوق الكاثوليكية الرومانية ورئيس أساقفة نيويورك ومساعده "أليكس (Alex)"، وتبادل معهم أفكاره.

وقد أجرى فتح الله كُولَنْ أهمَّ لقاءٍ في إطار حركة الحوار بين أتباع الأديان مع البابا "جون باول الثاني (John Paul)"؛ ففي هذا اللقاء الذي أُجري بالفاتيكان في التاسع من فبراير عام (١٩٩٨م) ووُضِعَت أُسُسُه مسبقًا بلقاء "الكردينال أُوكونور" في أمريكا، وبمساهمة فاعلة ومهمة من "بير لويغي جالاتا (Pier Luigi Celata)" سفير الفاتيكان لدى أنقرة و"جورج ماروفيتش (Geo-rges Marovitch)" ممثل الفاتيكان بإسطنبول، وبِعِلْمِ كبار مسؤولي الجمهورية التركية بل وفي إطار إذنهم بذلك، ودعمٍ مهمٍّ من "ألطان كُووَنْ (Altan Güven)" سفير تركيا لدى الفاتيكان، بل وبناءً على دعوةٍ شخصيّةٍ من البابا اقترح فتحُ الله كُولَن على البابا بعد مراسم الترحاب والاحترام ما يأتي:

- القيام بزيارة مشتركة هذا العام إلى الأماكن المقدسة لديهم مثل: "أفس (Efes)" و"أنطاكيا (Antakya)" و"طرسوس (Tarsus)" و"القدس" بمناسبة دخول المسيحية في الألفية الثالثة من عمرها.
- إعلان "القدس" منطقة عالمية يستطيع المسلمون والمسيحيون واليهود زيارتها بِحُرِّيَّةٍ تامَّةٍ ودون أيَّةِ قيود، بل ودون الحصول على أيَّة تأشيرات.
- تنظيم مؤتمر دولي بالتعاون بين أتباع الديانات الثلاث الكبرى يُعقد في عواصم مختلفة من العالم على أن يعقد الأوَّلُ في أمريكا.
- إنشاء جامعة مستقلّة في مدينة "حرّان (Harran)" -التابعة لمحافظة "أُورْفَة" التركية- توفر احتياجات الديانات الثلاث الكبرى، وتفعيل التبادل الطلابي بين العالمين: الإسلامي والمسيحي[٢٢].

وقد جاءت أهمُّ التحليلات والتقييمات بشأن لقاء فتح الله كُولَنْ والبابا وأكثرها تعبيرًا ومعنى على لسان الأستاذ الدكتور "سيدني غريفث (Sidney Griffith)" رئيس قسم الدراسات المسيحية الشرقية بالجامعة الكاثوليكية بواشنطن؛ إذ يقول:

"المقصد في الحوار هو أن يكون وسيلةً ليتعرَّفَ المسيحيُّون جيّدًا على حقيقة الإسلام التي يجهلونها".

ويقف على بضع نقاط مهمَّةٍ بشأن الإسلام والصورة التي يُعرَف بها في العالم فيقول:

الإسلام اليوم يُدرسُ في جامعات الغرب في أقسام الجامعات للعلوم السياسيّة أو العلاقات الدولية في الأكثر؛ فيُنظَرُ إليه من الجانب السياسي أي بعين المستشرِق؛ إذ لم يُدرس الإسلام في كليات الإلهيات كدينٍ؛ ولذا أرى أن المشكلة تبدأ من هنا"[٢٣].

خاتمة

ختامًا فإنني أرى أن اهتمام كولن بمسألة الحوار الديني لا يعني أن نترك ديننا ونتنازل عنه لأصحاب الديانات الأخرى أو العكس، وليس هو من قبيل توحيد الأديان، وإنما هو منبَعِثٌ من ثقته بدينه، وهذا ما يجعله قادرًا على تعامل المسلمين مع غيرهم، لأنه واثقٌ بأن المسلمين يمتلكون الأفضل والأكمل، وأن المسلم سيكون مؤثِّرًا لا متأثّرًا..

إن كولن يريد من البشرية أن تلتزم بالدين، وألا تبتعد عنه إلى الإلحاد، فجميعُ الديانات تحث على الفضيلة وتحذر من الرذيلة، والدينُ يجعل من الإنسانية خليّة مسالمة متناغمة متعايشة تحب الخير وتتبارى فيه، أما الانسلاخ من الدين فيحول البشرية إلى وحش كاسر يأكل بعضُه بعضًا.

إنه يرى النصوص القرآنية نورًا يهدي وليست قيدًا يأسر.. وهي الوصفة الوحيدة لاحترام القرآن وترتيله وتقديسه وإجلاله، ليس باعتباره نصًّا سحريًّا فوق العقل وفوق العلم، بل باعتباره نصَّ هداية وحكمة ونور تحتاج إليه الأمة حين تقتحم المشهد الحضاري بعقول منفتحة وإرادة بصيرة وشورى صحيحة.

لقد قدّمت النصوص الدينية بسخاء قيمَ الحرية الفكرية وقدَّستْها وصانتها، "لا إكراه في الدين"، "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"، "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر"، فنحن ننتمي إلى دين يُفترض أنه جاء ليعلن نهاية عصر الغيب وبداية عصر الشهادة.. وانتهاء عصر الخوارق وبداية عصر السنن.. ونهاية عصر الوحي وبداية عصر الإنسان.

إن دعوة كولن إلى الحوار والتسامح تعني دعوة للمسلمين أن يكونوا أمّة بين الأمم وليسوا أمة فوق الأمم، لسنا شعب الله المختار، وليس الخلاص حكرًا لنا وعلى الآخرين أن يدفعوا لنا الجزية عن يد وهم صاغرون، ثم تكون لهم فوق ذلك المحرقةُ في الآخرة..

إنه يُلقي على كاهل العلماء والمفكّرين والقادة اليوم مهمة عظيمة ألا وهي العمل على دمج أمتنا بين الأمم، وأنسنةِ الوعي الشعبي تجاه العالم، وهدم الحواجز والأسلاك التي رسمها الوهم على تخوم العالم، إنه واجب ديني ووطني، وأن يتحولوا بشعوبنا من مقام المفعول به المنصوب الذي وقع عليه فعل الفاعل إلى مقام الفاعل المرفوع، الشريك الإيجابي في صناعة الحياة.. فنحن في الواقع أمة بين الأمم ولسنا أمة فوق الأمم ولا تحت الأمم.

الهوامش

(١) فتح الله كُولَنْ: الموازين أو أضواء على الطريق، ص ١٩-٢١.
(٢) فتح الله كولن ومقومات مشروعه الحضاري، علي أونال، ٢٤٥.
(٣) بيت الجمع: اسم يطلق في تركيا على المكان الذي يمارس فيه العلويون طقوس الذكر، وأما المشروع المذكور هو مشروع إنشاء مسجد وبيت جمع جنبا إلى جنب. ويهدف الأستاذ فتح الله كولن من وراء هذا المشروع إلى إزالة التوتر العلوي السنّي في تركيا، وإزالة الاختلاف بينهما بكسر مظاهر الخشونة والحدة بين العلويين والسُّنّة، وأن يتعرف الجانبان على بعضهما عن قرب أكثر وبشكل صحيح.
(٤) كلمات شاهدة، ص ٧٠.
(٥) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ٣٤٤/٤.
(٦) إشراقات الأمل، فتح الله كولن، ص ١٤٣.
(٧) عبد الله أَرْغُونْ: فتح الله كولن في مرآة الإعلام (Medya Aynasında Fethullah Gülen)، ص ٢٤٢.
(٨) نُشِرَ هذا الحوار في مجلة "بوليتيكو" الأمريكية، ٩سبتمبر ٢٠١٦م، وقد أجرى هذا الحوار مع الأستاذ كولن الصحفية نهل طوسي؛ مواقف في زمن المحنة، ص ١٧١.
(٩) عقبات في سبيل الحق، فتح الله كولن، ص ٢١٥.
(١٠) كلمات شاهدة، ١٧.
(١١) فتح الله كولن حياة في الخدمة، د. جون باول، ص ٢٦٧.
(١٢) كلمات شاهدة، ١٧.
(١٣) لمسات في إصلاح المجتمع، فتح الله كولن، ١٦٢.
(١٤) جريدة "زمان (Zaman)" التركية، ١١ مارس/آذار (١٩٩٨م).
(١٥) عبد الله أَرْغُونْ: فتح الله كولن في مرآة الإعلام (Medya Aynasında Fethullah Gülen)، ص ٢٥٤.
(١٦) فتح الله كولن حياة في الخدمة، د جون باول، ص ٢٦٧.
(١٧) أضواء قرآنية، فتح الله كولن، ص ١٠١.
(١٨) فتح الله كولن ومقومات مشروعه الحضاري، علي أونال، ص ٨١.
(١٩) فتح الله كولن حياة في الخدمة، د. جون باول، ص ٣٢٠.
(٢٠) الرؤية والتأثير، فتح الله كولن، ص ١٧٦.
(٢١) مجلة "أَكْسِيُونْ Aksiyon)" التركية الإخبارية، ١٤-٢٠ فبراير/شباط (١٩٩٨م)، ص ١٦٧.
(٢٢) فتح الله كولن ومقومات مشروعه الحضاري، علي أونال، ٢٧٧.
(٢٣) صحيفة "زمان (Zaman)" التركية، من ٣٠ يناير/كانون الثاني (١٩٩٨م) إلى ١ فبراير/شباط (١٩٩٨م).

إيان فراي

دكتوراه في كلية اللاهوت في ملبورن، انضم إلى اللجنة المشيخية للإرسالية المحلية في فيكتوريا في منصب مسؤول اتصالات. فور اندلاع حرب أكتوبر، اقترح إعادة تقييم المفاهيم العقائدية بالتعاون بين المسيحيين واليهود والمسلمين. تناولت أوراقه البحثية السابقة العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، والنصوص البينية في الكتب المقدسة، والعولمة، والتعاون بين الأديان في إعادة تقييم المفاهيم العقائدية. يعد كتابه "مشكلة المثلث" Trouble in the Triangle بمثابة استعراض نقدي للعلاقات بين المسيحية واليهودية والإسلام. شغل في السابق منصب السكرتير المؤسس للرابطة اليهودية المسيحية المسلمة في أستراليا، وهو عضو في لجنة التعاون بين الأديان التابعة لمجلس الكنائس في فيكتوريا.

إعادة تقييم المفاهيم العقائدية

دور أكبر لحركة كولن نحو تطوير الفهم الديني، مستمَدٌّ من القرآن والإسلام

تؤكد هذه الدراسة أن مبدأ الحوار بين أبناء الديانات الإبراهيمية يتماشى مع تعاليم القرآن والدور المحوري الذي يلعبه الإسلام في التطور الديني. ويقدم القرآن الدافع وراء تعاون أصحاب العقائد المختلفة ووسيلة القيام بذلك، بهدف تخفيف حدة الصراع الحالي بينهم. كذلك من الضروري وضع خطة لإعادة تقييم المفاهيم العقائدية الأساسية التي توجّه الفهم الذاتي لكل عقيدة.

وتركز الدراسة على الظروف المحيطة بسعي فتح الله كولن لإقامة حوار مع مجتمعات الأديان الأخرى بعيدًا عن المبادرات السياسية، بهدف حماية مجتمعات المسلمين وإفادتهم بشكل مقصود، وذلك في سياق العلاقة بين الإسلام والمسيحية واليهودية.

ويؤكد تاريخ العالم والنمو السكاني والعلوم أن المعتقدات والممارسات الدينية الحالية ليست مطلقة أو قاطعة. ومن ثم فإن كل أديان العالم تسعى إلى توجيه البشر للتعايش معًا في تناغم واستقرار. وتقع مسؤولية إضافية على عاتق أصحاب الأديان الإبراهيمية؛ تتمثل في مساعدة البشر على فهم علاقتهم بالخالق. لكن الصراعات الدائرة بينهم تحول دون تحقيق هذين الهدفين للأسف. إن التزام البشر بأداء واجباتهم الدينية بموجب العهد الإلهي قد يدفعهم إلى إجراء تغييرات تتماشى مع المقصود الإلهي، بالرغم من سعيهم وراء منفعة شخصية عبر ممارسة سلوكيات سلبية بإرادة حرة. ومتى حدث ذلك، فإن الظروف تشير إلى أنها ستكون متوافقة مع الإدانة الإلهية التي تنطبق عليهم. وما من شك أن التغييرات الناتجة عن عملية إعادة التقييم ستكون أفضل.

لقد جاء الإسلام لتحدي العقائد السابقة، وتشجيع إعادة تقييم ممارساتها وفهمها الذاتي. ولم يتغير هذا الدور الإصلاحي منذ ذلك الحين، ويجب ألا تتشتت رؤية قادته بسبب الصراعات الحالية. فلا بد أن يستمر الحوار متوازيًا مع برنامج تعاوني عالمي لإعادة التقييم. ومن الممكن أن تكون حركة كولن منصة انطلاق هذا البرنامج، بفضل ما أطلقته بالفعل من مبادرات، ولا سيما في مجالي التعليم والمؤتمرات، فضلاً عن مقترحات إنشاء جامعات مشتركة تضم مسلمين ومسيحيين.

لقد اكتسبت حركة كولن سمعة طيبة تؤكد على انفتاحها، وحفاوتها الدائمة، واستعدادها للحوار مع أصحاب الديانات الأخرى، سواء في مجتمعات إسلامية أو غير إسلامية في أوقات الأزمات الدولية المحتدمة. وقد شجعت سياسة الحركة الاستعداد لإقامة حوار مشترك، ونجحت في تنفيذ برامج تعليمية وثقافية لم يكن لها أي وجود منذ بضع سنوات. وهذا يتماشى مع المبادئ التي كثيرا ما نادى بها فتح الله كولن، وطبقها في تعاملاته وعلاقاته مع أتباع الأديان الأخرى على مدار مشواره، ومع إدراكه الواعي أن الإسلام جاء من أجل الإصلاح عبر الحوار.

ولقد أشار كولن في بحثه "دعوة الإسلام العالمية للحوار" (١١ يونيو ٢٠٠٣) إلى أن الإسلام قدم أعظم دعوة شهدها العالم للتقريب بين اليهود والنصارى، عندما أسماهم "أهل الكتاب"، قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان. ثم أكّد على أهمية تلبية هذه الدعوة الآن أكثر من أي وقت مضى، فيقول: "أصبح الحوار بين الأديان ضرورة الآن، وأول خطوة لبدء الحوار نسيان الماضي، والتغاضي عن الخلافات الجدلية، والتركيز على النقاط المشتركة التي تزيد عن النقاط الجدلية بكثير" ("الحوار ضرورة"، ١١ يونيو ٢٠٠٣).

غير أن التعايش السلمي موضوع هذا المؤتمر[١]، ليس الهدف الأمثل، فلا بد أن يكون هدفنا التغلب على ظروف الأزمة الحالية، وإرساء أجواء التناغم والاستقرار والحفاظ عليها، فيما بقي من عمر البشر على الأرض. وهذا يتطلب فهْمَ الأساس التاريخي لظروف الأزمة الحالية.

لهذا فبالرغم من ضرورة تجاوز جراح الماضي عند السعي لإقامة حوار على المستوى المجتمعي، فلا بد من دراسة التاريخ وكل آفات الطبيعة البشرية والسلوكيات الدنيئة التي تتكشف لنا، والنظر إليها بانفتاح وشمول وصدق قبل الانتقال إلى المرحلة التالية، وهي مرحلة إعادة التقييم على يد العلماء والقادة الدينيين، لتيسير تحقيق الهدف على المدى البعيد.

وبعد دراسة الظروف التاريخية، نكتشف أن السبب الرئيسي وراء الأزمة الحالية هو اعتناق أشكال مختلفة من الفهم الذاتي للمجتمع مستمدة من تأويلات محددة للمعتقدات والتعاليم الدينية. وهذه الأشكال من الفهم الذاتي قد تؤدي إلى تبني توجهات معادية نحو أصحاب المعتقدات الدينية الأخرى والسلوكيات الشخصية والعامة المغايرة. ومن ثم تؤدي هذه السلوكيات بدورها إلى ظهور مجموعة متوقعة من أنماط الصراع. لن يهم إن كان الأشخاص يتبنون معتقدات دينية مختلفة، ما دام فهمهم الذاتي وسلوكياتهم المترتبة على ذلك لا تؤدي إلى الصراع، وتشير فقرتان لاحقتان من نفس البيان الخاص بالحوار إلى أن كولن يدرك هذا الموقف بوضوح:

"هناك أشخاص اعتنقوا الإسلام بوصفه أيديولوجية سياسية، وليس عقيدة دينية بكل ما تحمل من معنى ووظيفة، وهؤلاء عندما يراجعون أفعالهم وتوجهاتهم التي يعتبرونها إسلامية، وخاصة السياسية منها، فسيكتشفون أن القوة المحرّكة في الأغلب هي مشاعر غضب أو عداء شخصية أو قومية، أو دوافع شبيهة. وإن كان الوضع كذلك، فينبغي لنا أن نقبل الإسلام ونعتنق التوجه الإسلامي باعتباره نقطة انطلاق أفعالنا لاستبدال الوضع الحالي المجحف، فيجب أن ترتكز نقطة انطلاقنا على أساس إسلامي. كما يجب ألا يتصرف المسلمون من منطلق عصبية أيديولوجية أو سياسية ثم يُلبسوا أفعالهم عباءة الإسلام، أو أن يطرحوا رغباتهم في صورة أفكار. فإذا نجحنا في التغلب على هذه النزعة، فسيظهر وجه الإسلام الحقيقي. أما صورة الإسلام المشوهة الحالية التي انتشرت بسبب إساءة استخدامه من قِبل المسلمين وغير المسلمين لتحقيق أهدافهم الخاصة، فإنها صورة مخيفة لكلٍ من المسلمين وغير المسلمين.

وتنطبق هذه العبارة على اليهود والنصارى كما تنطبق على المسلمين، فهناك علاقة وثيقة تربط بين الصراع الناجم عن السلوكيات والفهم الذاتي والعقيدة. لهذا، لا يمكن إنهاء الصراع

ما لم تخضع جوانب عقائدية معينة لإعادة التقييم، وتغيير الفهم الذاتي والسلوكيات، ولقد ظهرت هذه الحقيقة جلية منذ بدايات القرن العشرين وحتى منتصفه، لكنها تعرضت لحملة إنكار واسعة، مع إجهاض أي مناقشات لإعادة التقييم من شأنها تكوين فهم ذاتي جديد [٢]. [فراي ٢٠٠٠ (١) ص. ٥٧٩][٣] [ستورتن ١٩٩٨، ص.ص. ٣٧-٤٠][٤] [أريراجاه ١٩٩٢]

فهناك تخوف من الإقرار باحتمالية وجود مبرر أو ضرورة لإعادة تقييم العقيدة، التي يعلّمها المرء أو يمارسها، لأنه قد يعني ضمنيًا الاعتراف بأن الفهم الذاتي الشخصي القائم على العقيدة قد يكون (أو ربما كان بالفعل) أحدَ عوامل نشوب الأزمة. بل إن مجرد التفكير في هذا الاعتراف صورة من صور تحدي الفهم الذاتي للجماعات الدينية المهيمنة، وتهديد لسلطة مؤسساتها. إن الحاجة الملحوظة للحفاظ على "النزاهة" المؤسسية والسلطة الشخصية مقدّمة على زيادة فرص السلام العالمي والاستقرار. ولعل ردود الفعل المتناقضة تجاه الصراع الناتجة عن هذا التعنت قد تفرز حاجة أكثر إلحاحًا لإقامة حوار.

وإن أحد ردود الفعل -الصادرة غالبًا عن أشخاص غير منخرطين في الشؤون الدينية بصورة مباشرة، وقد لا يكون لديهم أساس ديني بما تحمل الكلمة من معنى- قائم على إدراك أن المجتمع يمزق نفسه، وهو أمر يجب إيقافه، ويجب التغلب على الصراع بين المجتمعات الدينية من خلال محاولة إقامة حوار مشترك والتعرف على الآخر. في حين قد ينشأ رد الفعل الثاني عن إحساس بعدم الأمان والخوف على استقرار نظام عقائدي يُفترض به توفير الإطار العام للثقافة الاجتماعية والجماعية. ربما يدفع هذا الشعور بعدم الأمان الحوار للوصول إلى حل وسط لمنع عملية إعادة التقييم أو اعتبارها غير ضرورية. وربما ينشأ رد الفعل الثالث عن فكرة مناقضة؛ وهي الثقة في النظام العقائدي الذاتي، وإن أفرز الحوار عملية إعادة تقييم وأدى إلى تغيير، فإن اليقين أنه سيكون تغييرًا متوافقًا مع المقصود الإلهي.

وإن تعدد الدوافع وردود الفعل يعني أن أغلب الإرشادات -دون استثناء يُذكر- التي تنشرها برامج الحوار توجّه المشاركين نحو أن يتعرّف أحدهم على الآخر على صعيد شخصي، ثم التعرف على ممارسات الآخر الثقافية والدينية، وأخيرًا تكوين فكرة عامة عن العقيدة. كما تحاول إبعاد الأشخاص عن النظر إلى الاعتبارات العقائدية التي تشكّل أساس الفهم الذاتي، وبالتالي التوجهات والسلوكيات التي تؤدي إلى الصراع. يظهر ذلك في الملاحظتين ١ و٤ من الإرشادات الصادرة عن "مؤتمر واشنطن للتحالف بين الأديان"[٥]. ويتمثل هدف الحوار بين الأديان في زيادة فهمنا واحترامنا للأنظمة والمؤسسات الدينية الأخرى، وبالتالي زيادة تقديرنا

لمنظومة قيمها. ويجب أن يزيد الحوار حساسيتَنا تجاه مشاعر كل الأشخاص المتدينين في علاقتهم بالخالق.

كما يجب كذلك أن يؤدي الحوار الجيد إلى ترسيخ الإيمان في قلب كل شخص مشارك، وأن يحمل هدفًا نبيلاً يتعلق بموضوع قد يصبح مستحسنًا أو حتى ضروريًّا لاتخاذ أي إجراء نتيجة الحوار بين الأديان، وهناك هدف نبيل أيضًا للحوار القائم من أجل الحوار؛ لتبسيط الموضوعات والتقريب بين الأشخاص ومشاعر المشاركين، فيجب أن يقدم المشاركون في الحوار آراءَ المجموعة العقائدية التي ينتمون إليها، لكن باستطاعتهم أيضًا مشاركة آرائهم الشخصية. وبذلك يتجلى الإيمان الراسخ في أي جماعة دينية مع التشديد على ذلك. غير أن مستوى الأزمة الحالية يفرض علينا اللقاء في مؤتمرات متنوعة، ويبين لنا بوضوح أن هدفنا الرئيسي لن يتحقق ببرامج الحوار وحدها؛ بل من الضروري إعادة تقييم مبادئ العقيدة الأساسية، لمساعدة البشر على إدراك أن البشرية كيان واحد، وتكوين فهم مستنير للعلاقة بين البشر والخالق في ظل العهد الإلهي.

وتستقصي هذه الدراسة مفهوم العهد الإلهي، وكيف ظهر، وتقارب النبوءات الخاصة بالعهد، لإثبات أن حركة كولن أداة مناسبة لتحفيز عملية إعادة التقييم العقائدية، ونشرها، ودعمها. ونقطة انطلاقها هي مكانة البشر بين المخلوقات. لكن إذا كانت حركة كولن ستلعب دورًا جوهريًّا، فمن الأفضل إجراء استعراض سريع للظروف المحيطة بنشأتها.

لقد كان العالم يمر بأزمة عندما جاء فتح الله كولن إليه[٦]. فكانت الحكومات والشعوب مشغولة بالصراع الدائر بين الدكتاتور الألماني أدولف هتلر ومجموعة صغيرة من القادة الأوروبيين الذين قيل إنهم يحمون العالم من فظائع هتلر. كانت هذه الصورة مناقضة تمامًا لمشهد التزلف الذي استقبل به قادة الدول الصناعية هتلر قبل بضعة أعوام عندما حقق المعجزة الاقتصادية الألمانية. وأدرك القليلون أن الكارثة تكمن في انتهاك واجبات العهد الإلهي التي ادعت القوى المسيحية الالتزامَ بها. وأقل منهم من كان على استعداد لمناقشة ذلك. ونستعرض فيما يلي أهم الظروف التي تلخص الوضع.

اعتمدت القوى الأوروبية على تفسير الكنيسة المسيحية الخاص لمصطلح العهد الإلهي، ومبادئ عقيدته، وفهمه الذاتي لواجبه الديني، لإخضاع الشعوب وتسخيرها في جميع أنحاء العالم غير الأوروبي على مدار أربعمائة عام.

وخلال هذه الفترة، تدهورت أوضاع الإمبراطورية العثمانية، بسبب كلٍّ من سيطرة القوى الأوروبية، وفهم القادة المسلمين الذاتي لواجبهم الديني.

وقد عمدت القوى الأوروبية إلى انتهاك نفس مبادئ العقيدة بشكل ممنهج على مدى زمني أطول، بهدف إخضاع المجتمعات اليهودية في أوروبا وقمعها.

وقد وصل هذا القمع إلى مراحل متقدمة، أدت إلى قيام مجموعة من القادة اليهود بتأسيس حركة صهيونية تبحث عن وطن؛ هربًا من الاضطهاد في أوروبا. واستندوا إلى تأويلهم الخاص لمصطلح العهد الإلهي الذي ظن شعبهم أنهم يعيشون بموجبه، وسعوا إلى احتلال المنطقة التي طُرد منها أسلافهم قبل قرابة ألفي عام.

وعندما أدت المنافسة بين القوى الأوروبية إلى قيام الحرب العالمية الأولى، أدركت بريطانيا -وهي القوة الاستعمارية المهيمنة- أن احتمالات الهزيمة الفعلية أصبحت كبيرة. ورأت حكومتها والقادة الصهيونيون أن المصالحَ الكبيرة المشتركة المترتبة على عقد تسوية لا تتخذ صورة اتفاق رسمي وليست لها وثائق في البداية، سوى إعلان بلفور. شمل ذلك المزيدَ من الانتهاكات للفهم الذاتي للدور الديني من قِبل الطرفين.

ومن بين نتائج هذه التسوية دخولُ الولايات المتحدة في الحرب حليفًا لبريطانيا، واحتلالُ بريطانيا أهم حقول النفط في العراق قبل أن تسيطر عليها ألمانيا، واجتياحُ الحلفاء روسيا عندما فشل يهودُ روسيا الذين رعاهم إعلان بلفور في إبقاء الحكومة البلشفية في الحرب كحليف على الجبهة الشرقية وأضروا بموقف بريطانيا، واستمرار الحرب لوقت طويل جدًّا وما تلى ذلك من تبعات كارثية، وحصول بريطانيا على تمويلات إضافية هائلة ساعدت في صمودها، وتدهور أوضاع كلٍّ من ألمانيا والإمبراطورية العثمانية التي تحالف قادتُها مع ألمانيا مخافة التعرض لمجازفة روسية لدعم بريطانيا، وتوقع تأسيس دولة يهودية بعد منح بريطانيا حق الانتداب على فلسطين.

وقد وصل الحزب النازي للسلطة في ألمانيا بقيادة أدولف هتلر الذي كانت لديه رؤى تبشيرية بعد التعرض لقنبلة موقوتة في أواخر أيام الحرب، وقد طارده شبح هزيمة ألمانيا نتيجة تدخل اليهود بسبب إعلان بلفور. وقد استغل فرصة قضاء تسعة أشهر في السجن، ليبدأ إملاء بنود سياسته في كتاب "كفاحي" Mein Kampf الذي أوضح فيه نواياه تمامًا.

"أنا مؤمن أنني أعمل وفق إرادة الخالق: عندما أحمي نفسي من اليهود، أنا أقاتل لأجل عمل الرب" [وات ١٩٦٩].

وفي حين حاول مصطفى كمال أن يُعيد العزة والمكانة والأمان والاقتصاد إلى جمهورية تركيا المُعاد إعمارها من خلال تحقيق النجاح العسكري وإسقاط السلطان العثماني، حاولت

القوى العظمى في أوروبا القارية، المشغولة بإعادة الإعمار والتعافي الاقتصادي، أن تقنع نفسها أن هتلر وأفكاره الدينية ليست ذات تأثير يُذكر. وكافحت بريطانيا للحفاظ على سيطرتها على فلسطين -التي مزقها الصراع بين المهاجرين اليهود المستوطنين والمسلمين والمسيحيين العرب الذي رأوا وطنهم يُسلب منهم بالتدريج- لأن فقدان فلسطين يعني بالتأكيد فقدان إمبراطوريتها الشرقية. صاحبت عملية إعادة إعمار تركيا فصل الإسلام ودوره وتأثيره عن الهياكل التنظيمية للدولة، وإجراء مجموعة إصلاحات كمالية في الجوانب الاجتماعية والتعليمية والإدارية، وإضفاء الطابع الأوروبي على الثقافة واللغة، وإحلال القوانين المدنية محل الدينية، والقضاء على التفرقة العرقية.

واكتملت عملية إعادة الإعمار يوم ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ عندما فقدت تركيا مؤسِّسها، واستيقظت أوروبا على مرحلة جديدة في "المسألة اليهودية". وربما كان فتح الله كولن يلتقط أولى أنفاسه في هذا العالم.

عُقد مؤتمر في مدينة إيفيان قبل بضعة أشهر، رفضت فيه القوى الغربية الموافقة على برنامج إعادة توطين اليهود لتخليص هتلر من "مشكلة اليهود" التي تواجهه. وسرعان ما تفاقم الوضع عندما نشرت الجريدة اليسوعية (Civilta Cattolica) دراسة مطولة، ذكرت فيها أن "سيادة" اليهود قد أصبحت ذات تبعات "كارثية على الحياة الدينية والأخلاقية والاجتماعية للشعب المجري"، وبالتالي فإنها ليست مسألة اقتراح فكرة من أجل العزل، بل "الموافقة على تطبيقها الفعلي في بلد يُعتبر "أهم وأقوى معقل للمسيحية"". [فراي ٢٠٠٠ (١) ص. ٧٩١]، ولقد أجاب هتلر موجهًا حديثه للحكومة البريطانية قائلاً إنه "إذا لم يكن هناك حل مُرضٍ في القريب العاجل، فسأضطر ببساطة لحل (مشكلة سوديتن) بالقوة". [تولاند ١٩٧٧، ص.ص. ٦٣٧-٦٣٨؛ وتشرشل ١٩٤٨، ص.ص. ٢٤٢-٢٤٣]، وانصاعت بريطانيا، وأجبرت تشيكوسلوفاكيا على قبول معاهدة ميونيخ، والتخلي عن سوديتنلاند لهتلر، [بولوك ١٩٩٣، ص. ٦٣٣]، وفي يوم ٩ نوفمبر ١٩٣٨، أكّد هتلر رسالته لليهود والعالم عندما نفذ اجتياح "ليلة الكريستال"، وما تبع ذلك من عودة اليهود سريعًا إلى تشيكوسلوفاكيا وبولندا.

سرعان ما فقدت بريطانيا السيطرة على الأزمة في فلسطين، وضعفت قبضتها على إمبراطوريتها، وزاد هتلر الضغط من أجل إعادة توطين اليهود دون انصياع أي دولة. فهدد باجتياح بولندا، وتحت ضغوط شديدة من المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية من أجل فلسطين، قدمت بريطانيا لبولندا ضمان وساطة[٧]. [فراي ٢٠٠٠ (٢) ص.ص. ٩٦٠-٩٧٠]،

وعندما بدأت قنابل هتلر تضرب بولندا، دخلت بريطانيا في حرب مع ألمانيا. وكان هتلر أقوى، وضغط لإجراء مفاوضات لحل مشكلة إعادة توطين اليهود. واجتاح هتلر هولندا وبلجيكا وفرنسا، وتوقع من بريطانيا أن تبدأ المفاوضات، لكنها لم تفعل. فقد قرر تشرشل إعادة تنظيم الصفوف ومواصلة الحرب، فأجلى القوات من مدينة دنكيرك. وعندما رأى هتلر آماله تتحطم، أصدر تعليماته بتنفيذ "الحل النهائي".

بعد مرور أربعة أعوام، كانت الحرب قد انتهت ونُفذت محرقة اليهود. وبدأت أعمال إعادة الإعمار مرة أخرى. ونجح المجتمع اليهودي في استغلال مشاعر الذنب المسيحية الغربية النابعة من رؤية مصير اليهود، وتم الاتفاق على إعادة التوطين في فلسطين باعتبارها وطنًا لليهود. وبعد ثلاثة أعوام، أدركت الحكومة البريطانية أن قوتها الاستعمارية والاقتصادية ستنهار إذا نفذت الخطة ضد مصالح العرب. لكن الولايات المتحدة واتتها نفس الرؤية، وأدركت الفوائد الهائلة التي ستحصل عليها إذا لعبت دور الراعي والحامي للدولة اليهودية المقترحة، التي كانت سبب صدور إعلان بلفور قبل ثلاثين عامًا. وتوقعت زيادة قوتها السياسية والرأسمالية زيادة كبيرة، ولاحت لها فرصة مواتية لاستغلال جغرافيا الشرق الأوسط وموارده إن هي وضعت قدمها في فلسطين، بمساعدة جماعة ناخبيها اليهود. وارتأت الحكومة أن هذه الشراكة من شأنها تيسير إنشاء مؤسسات "بريتون وودز" وتنفيذ "مشروع مارشال"، المنتظر أن تساعدها في تأمين سيطرتها على النظام الاقتصادي العالمي، والموارد والأسواق المستقبلية، والهيمنة على الشؤون العالمية دون حاجة كبيرة للاعتماد على القوة العسكرية. [والا ١٩٩٣، وبولارد ١٩٨٥]

ولقد كان فتح الله كولن في آخر سنوات المدرسة الابتدائية عندما بدأ تقسيم فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ وإعلان دولة إسرائيل. وفي أعقاب فساد سياسي وتلاعب غير مسبوق في تصويت الأمم المتحدة، تحرك ٣٢٥٠٠ جندي من خمس دول عربية مجاورة، عابرين الحدود لمواجهة ٣٠٠٠٠ جندي من الهاجاناه اليهودية في الحرب العربية الإسرائيلية. [فراي ٢٠٠٠ (٢) ص.ص. ١٤٧٤-١٤٨٣] ونشبت أول حرب ضمن سبعة حروب كبرى تندلع خلال أقل من ستين عامًا بسبب تأسيس دولة إسرائيل. وقد تزامن ذلك مع حدث آخر أكثر أهمية، والذي كان في ظاهره مؤشرًا للآخر. كان الحدث الرئيسي هو تزامن تحقق تنبؤات من الديانتين الأخريين كانت الكنيسة قد قطعت باستحالتهما منذ وقت طويل؛ هما نبوءة سورة الإسراء، وتنبؤ موسى بن ميمون بظروف عودة بني إسرائيل إلى وطن أسلافهم.

يمكن إدراك أهمية الإسهامات التي قدمها فتح الله كولن وزملاؤه في الحركة عند ربطها بالظروف التي دفعته للانخراط في العمل.

فخلال الفترة التي ترك فيها كولن المدرسة الابتدائية وبدأ يتعلم الدين بمساعدة والده والحاج صدقي أفندي، كانت الجهود تُبذل في تركيا للرجوع في بعض الإصلاحات الكمالية، والتأكد من تماشي القوانين المحلية مع الحريات والحقوق التي قبلتها البلاد عبر تبني ميثاق الأمم المتحدة، التي كانت تركيا عضوًا فيها؛ بعد تخليها عن حيادها في المراحل الأخيرة من الحرب ضد ألمانيا للانتفاع من الوقوف في صف القوى الغربية المنتصرة بعد الحرب[٨]. نتيجة لذلك، استعادت البلاد قدرًا كبيرًا من الحرية الدينية، وسُمح بالتعليم الديني في المدارس الحكومية عند الطلب، وتأسست كلية إلهيات في جامعة أنقرة، وعادت الأخوة الصوفية إلى الحياة مرة أخرى.

حينها بدأ كولن يهتم بأعمال سعيد النورسي، الذي قيل إنه أول من دعا إلى الحوار بين الأديان كما نرى في رسائله إلى البابا والبطريرك الأرثوذكسي، في محاولة للتقريب بين المسلمين والمسيحيين في مواجهة الشيوعية. وعندما مات أستاذه عام ١٩٦٠ وبدأ كولن يعطي المحاضرات بنفسه، كان الشرق الأوسط قد دخل في حرب أخرى بين العرب وإسرائيل بمعاونة القوى العظمى بسبب أزمة قناة السويس.

ولقد سافر كولن للحج مرتين، مرة عام ١٩٦٨ ومرة أخرى في يناير عام ١٩٧٣. وكانت تجربته في المملكة العربية السعودية وإقليم شرق البحر المتوسط خلال رحلة الحج الثانية حية في عقله عندما اندلعت حرب أكتوبر بعد تسعة أشهر، لكن يبدو أن اهتمامه الرئيسي في تلك الفترة انصب على التعافي الديني والإصلاح الداخلي في وطنه، وظلت خطاباته تركز بشدة على الحب، والسلوك القويم مع الله، وأوامر القرآن، والتسامح، وحقوق الإنسان، والعدل، وترابط المجتمع، والمشاركة الديمقراطية، وضرورة أن يحقق الدين الإسلامي المكانة التي يستحقها باعتباره أداة مؤثرة في حياة المجتمع وتثقيفه.

غير أنه بعد حرب أكتوبر، يبدو أن علاقاته الخارجية واهتمامه بالشؤون الخارجية قد زاد زيادة مطردة، وعندما عاد إلى تركيا من رحلة الحج الثالثة عبْر البَر في أغسطس ١٩٨٦، ظهر بوضوح كم كان غارقًا في الأزمة الدولية. كانت الثورة الإيرانية أمرًا من الماضي، وظلت مشاهد قيام إسرائيل بتدمير منظمة التحرير الفلسطينية وبيروت حية في مخيلته، وكانت الأردن على وشك تحمل مسؤولية الضفة الغربية، وقام أسامة بن لادن بدعم أمريكي بمساعدة الأفغان في إذلال الاتحاد السوفييتي الذي كان يستعد للانسحاب.

بدأت خطابات كولن تركز على نقطة جديدة

علم كولن أن الكنيسة الكاثوليكية قد غيرت موقفها، وأنها كانت تنظر إلى بعيد وتشجع المسيحيين على إقامة حوار مع أصحاب الأديان الأخرى. وأشار إلى أن الكنيسة "تتوجه نحو الأديان الأخرى التي تتمسك بمفهوم ومعنى الإله الواحد، المتعالي، الخالق، المتصرف، العليم". وسرعان ما أصبح مستعدًّا أن يقول: "يسعى الحوار بين الأديان إلى إدراك وحدة الأديان الأساسية وعمومية العقيدة. يحتضن الدين كل العقائد والأجناس ويعتبرهم إخوة، ويعلي من شأن الحب، والاحترام، والتسامح، والعفو، والرحمة، وحقوق الإنسان، والسلام، والأخوة، والحرية بمساعدة الأنبياء" [٢٠٠٢/٥/٢]

كان كولن يدرك تمامًا وجود معارضة من جهات معينة، ولا سيما الخوارج والقرامطة والفوضويين، لكنه أبدى التزامًا فعليًّا عندما سعى لعقد لقاءات مع البطريرك اليوناني بارثولوميوس في أبريل ١٩٩٦، والبابا يوحنا بولس الثاني في فبراير ١٩٩٨، والحاخام الأكبر ديفيد أسيو في يوليو ٢٠٠٦.

وتبين كتابات كولن حول العلاقة بين الحضارة والتجديد أنه يتمتع بمعرفة عميقة بعمليات التطور الإنساني على اختلافها، والتطور المادي، وتطور التاريخ والفكر الفلسفي والديني، والعلاقة بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة تحديدًا[٩]. وهذه المعرفة هي التي أهّلته أن يقول ما يلي عقب أحداث ١١ سبتمبر المؤلمة، وما أعقب ذلك من غزو صادم ومروع للعراق:

"ليس الهدف وراء الحوار بين أديان العالم هو تدمير المادية العلمية والنظرة العالمية المادية المدمرة؛ بل إن الدين بطبيعته يفرض هذا الحوار. اليهودية والمسيحية والإسلام، وحتى الهندوسية وغيرها من الأديان في العالم، تتلقى مبادئها من نفس المصدر، وتسعى لتحقيق نفس الهدف، متضمنة البوذية. وبوصفي مسلمًا، أؤمن بكل الأنبياء والكتب المرسلة إلى مختلف الأشخاص على مدار التاريخ، وأعتبر الإيمان بها مبدأ أساسيًّا من مبادئ الإسلام. المسلم الحقيقي يؤمن بإبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى، وكل الأنبياء. وعدم الإيمان بأحد الأنبياء أو الكتب السماوية يُخرج الشخص من الإسلام. لهذا نقر بوحدة الأديان الأساسية -التي ترسم لوحة متناغمة من نِعم الله ورحماته- وعمومية الإيمان بالأديان. وبالتالي فإن الدين نظام عقائدي يحتضن كل الأجناس وكل العقائد، أو طريق أخوة يجمع الكل". [٢٠٠٣/٦/١١]

للأسف كان رد فعل حكومة الولايات المتحدة وبعض حلفائها إدانة الإسلام وأتباعه، في محاولة لعزلهم سياسيًّا واجتماعيًّا وتقليل أثرهم في المحافل الدولية. غير أن هذه السياسة

انقلبت عليهم، وحدث العكس. استطاعت مجتمعات الأقليات المسلمة، عقب فترة من التردد والصدمة، أن تعيد تنظيم أمورها، وبفضل مساعدة ودعم العديد من المجتمعات والمؤسسات غير المسلمة، أصبحت أفضل حالاً، وأكثر تنظيمًا من حيث برامج العبادة والتعليم والرعاية الاجتماعية. تم تنظيم برامج حوار ومشاورات مجتمعية مكثفة مع الكنائس، والمعابد اليهودية، والجامعات، والحكومة المحلية. وبفضل زيادة التفاعل وسهولة التعرف على الآخر، استطاعت الأقليات المسلمة أن تحقق قبولاً كبيرًا، وتحظى بمشاركة وتأثير كبيرين في مجتمعاتها الواسعة، أكثر مما أمكن في أي وقت مضى. ووجدت بعض الحكومات والأحزاب السياسية أنه من الضروري تعديل ممارساتها الخاصة بالإدماج الاجتماعي لتجنب أن ينقلب عليها المجتمع.

ومن المؤسف عدم تبني اقتراح كولن بتأسيس جامعة تضم الأديان الثلاثة، على أن يكون مقرها المنطقة التي هاجر منها إبراهيم؛ مهد الأديان. ويبدو أن بعض السلطات مستعدة لأخذ خطوة إضافية عبر تخصيص مقاعد للدراسات الإسلامية في الجامعات، مثلما حدث في الجامعة الكاثوليكية الأسترالية، غير أن هناك حاجة ملحّة إلى أن يتحرك قادة الأديان، وأن يشرعوا في عملية إعادة تقييم ممنهجة لمعرفة أسباب وصولنا إلى هذه المرحلة من الأزمة، ودراسة تأثير تعاليمهم الدينية، واكتشاف أفضل طريقة للمضي قدمًا؛ لأن الجهود المبذولة لوضع برامج تعليمية وبحثية تعاونية يجب ألا تتوقف.

ولقد أثبتت حركة كولن، بتوجيه وإلهام من قائدها، أنها قادرة على بذل هذه الجهود إذا توفرت لديها الإرادة. ويجب تشجيعها استنادًا إلى المستويات الأربعة للحوار بين الأديان التي حددها إم توماس تانجاراي. [تانجاراي ١٩٩٩]

- الحوار حول شؤون الحياة.
- الحوار حول الأفعال.
- الحوار حول التبادل العقائدي، حيث يسعى الخبراء لتعميق فهمهم لتراثهم الديني وتقدير القيم الروحية لأحدهم الآخر.
- الحوار حول التجربة الدينية.

ونظرًا لأن كل ديانة كبرى تقر حاليًا بصحة الأديان الأخرى، فإن المنطق يفرض عليها أن تقر أيضًا بصحة كتبها المقدسة. ولا شك أنه على مستوى التبادل الأكاديمي للمعلومات الدينية قد حان الوقت للانتقال من مرحلة الحوار إلى مرحلة إعادة التقييم. لهذا يجب التخلي عن الشروط التي تفرض على المؤمنين أن "يقفوا أيضًا، بالحوار الصادق والصبور، على الكنوز

التي وزعها الله في جودِه، على الأمم" ويجب عليهم في الوقت نفسه "أن يعملوا على إنارة هذه الكنوز بنور الإنجيل، وتحريرها، وإخضاعها لسلطان الله المخلّص" [١٠]. ما زال يُطلب من بعض المجتمعات أن تنظر للحوار من هذا المنظور[١١]. الموقفان متناقضان. لهذا فإن محاولة وضع برنامج إعادة تقييم تعاوني للمفاهيم الدينية الأساسية ليس بالمهمة السهلة، لكن يجب تشجيع حركة كولن استنادًا إلى أن "أول صورة من صور الحوار بين الإسلام والمسيحية يمكن العثور عليها في القرآن، الذي يشير إلى العقيدة المسيحية بكلمات صريحة" (ألاتاس ٢٠٠٦، ص. ١٢٥). حدثت مناقشات عديدة، سواء وجهًا لوجه أو عبر المراسلات، خلال القرون الثلاثة التي تلت ظهور الإسلام[١٢]. لكن الأهم من المناقشات والمناظرات كانت التطورات اللاحقة، التي تضمنت قيام المسيحيين باستعارات ثقافية من المسلمين، تمحورت في مجملها حول الجامعات الإسلامية في الماضي، والتي تركت أثرها على حياة الغرب في العصور الوسطى. تشير السجلات إلى ظهور ثلاثة موضوعات للحوار بين الأديان في القرن الثالث عشر أثناء بداية نهوض الجامعات الغربية: (١) الأصول متعددة الثقافات للحضارة الحديثة، و(٢) لقاءات التعلم المتبادل بين الحضارات، و(٣) وجهة نظر الآخر. (ألاتاس ٢٠٠٦، ص. ١٢٦)

من المنطقي أن تقود عملية إعادة التقييم هيئة دولية دائمة، تضم أشخاصًا بارزين متبحرين في حياة كل دين من الأديان الكبرى، بمن فيهم أساتذة جامعيون على أعلى مستوى، من كل الأديان. ويجب أن تكون هذه الهيئة مدعومة بموارد كافية، وتمويلات متاحة لإدارة شبكة من برامج البحث بالتعاون مع جامعات ومؤسسات بحثية في عدد من الدول، والتي لا يُشترط أن تكون في حرم الجامعة.

من المتوقع أن يتم تنفيذ البرامج البحثية بالتعاون مع مرشحين من حملة شهادة الدكتوراه أو ما بعد الدكتوراه، يعملون في فِرق من ثلاثة (على الأرجح أحدهم مسلم والآخر مسيحي والثالث يهودي) تحت إشراف فِرق تتبع نفس التشكيل. ليس هناك حاجة أن يقيموا جميعًا في نفس المؤسسة، في ظل توفر وسائل التواصل الفوري. على أن يتم نشر نتائج أعمالهم البحثية، وإتاحتها للمؤسسات التعليمية والهيئات القيادية الكبرى في كل عقيدة، وإعدادها للنشر العام.

يتطلب البرنامج على الأرجح تأسيس هيئتين متوازيتين: واحدة لإدارة البرنامج وضمان تدفق التمويل، والأخرى لاتخاذ قرارات بشأن كل الجوانب الأكاديمية؛ وتشمل تحديد أولويات البحث، والإشراف على عملية اختيار لجان أساتذة البحث والمشرفين والممتحنين وتعيينها،

وتحديد سياسات منح الدرجات وسياسات النشر في حالة عدم اتفاق فريق البحث بالإجماع على النتائج (يجب تسليم بيان أقلية حول بعض الموضوعات).

من المتوقع أن تُستخدم المطبوعات، أو الكتب، أو الأبحاث، أو المقالات المتفرقة بكثرة في برامج الحوار والمؤسسات التعليمية. أما إذا كانت هناك رغبة في إدخال تغييرات على التعاليم، أو المذاهب، أو المعتقدات، أو الطقوس، أو أنظمة الأوامر، أو أنظمة الهيكل التنظيمي والسلطة، أو العلاقات التنظيمية لأي مؤسسة دينية، فهذه موضوعات راجعة لهذه المؤسسة الدينية وحدها لاتخاذ قرار بشأنها.

إن إعادة تقييم الجوانب التي اختلفت حولها الأديان الإبراهيمية مبادرة مطلوبة منذ وقت طويل. بل إنها حاجة ملحّة إذا أردنا بدء عصر مثالي يسوده السلام والاستقرار والتناغم، كما ينشد كل دين من الأديان الإبراهيمية، وكما توقع أتباع موسى بن ميمون "الأرض تمتلئ من معرفة مجد الرب كما تغطي المياه البحر" عقب عودة بني إسرائيل إلى أرض أجدادهم. لكن كل ذلك لن يتحقق إلا إذا انخرط علماء وقادة كل دين في جهود تعاون وثيقة.

قد تكون نقطة الانطلاق المنطقية هي عقد اجتماع يضم ثلاثين أو أربعين شخصية بارزة، في جلسة عمل متعمقة تستمر عدة أيام لمناقشة المناهج البديلة لتأسيس هيئة دولية دائمة، والموارد المطلوبة، وطريقة الحصول عليها، والإجراءات والتسهيلات الإدارية والتنسيقية اللازمة. كل هذا بمثابة تحدٍ، وفرصة، والتزام بموجب العهد، وأنا واثق أن حركة كولن على أتم استعداد لقبوله.

الهوامش

١) المقصود هو "المؤتمر الدولي للتعايش السلمي: مبادرات فتح الله كولن للسلام في العالم المعاصر" وهذا المقال مقتطف من ورقة بحثية قدمت في هذا المؤتمر الذي عقد في جامعة إيراسموس في روتردام في الفترة من ٢٢ إلى ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٧م .

(٢) تعرض المجلس التبشيري الدولي في عام ١٩٢٨ لانتقادات واسعة، عندما أعلن عقب اجتماع عقده في القدس أن المسيح تجسُّد لماهية الرب وتجسُّد لما يمكن أن يكون الإنسان من خلاله، وفي إشارة إلى أديان أخرى لا تعتبر المسيح ابن الرب، أضاف أن "الأب لم يترك نفسه بلا شاهد"

(٣) في عام ١٩٦٤، اضطر مجمع الفاتيكان الثاني لمراجعة مسودة "بيان في الحرية الدينية" Dignitatis Humanae الصادر عن الكنيسة الكاثوليكية. كان ذلك تحولاً هائلاً في طريقة تفكير الكنيسة؛ فهو يتحدى مبدأ الدولة الدينية ويقبل محدودية سلطة الكنيسة الدستورية. فأقر أنه "يجب على الأشخاص التصرف وفقًا لحكمهم، والاستمتاع بحريتهم الواعية والانتفاع بها، وألا يكون الإكراه هو محركهم بل إحساسهم بالواجب"، ووضع الحرية الدينية في مقدمة حقوق الإنسان، مشيرًا إلى أن "هذه الحاجة إلى الحرية في المجتمع الإنساني تُعلي من شأن السعي نحو القيم الملائمة للروح الإنسانية، وممارسة الدين بحرية في المجتمع." كان من نتائج التحدي الكبير للفهم الذاتي لواجب الكنيسة الديني أن خططت مجموعة من أعضاء المجلس الكبار "انقلابًا" لمنع تبني الرؤية الجديدة. غير أن مجموعة أخرى من الأعضاء التقدميين على نفس القدر من الإصرار أرسلوا خطابًا إلى البابا يوحنا بولس الحادي عشر، يوضحون فيه أن المعارضة "سببت قلقًا واضطرابًا شديدًا"، ويطلبون منه التدخل مباشرة. فأمر بتشكيل لجنة خاصة تضم أعضاء ذوي "آراء متزنة"، وتم تبني البيان.

(٤) تجسدت شكوك بعض المسيحيين تجاه الحوار بين الأديان في المناظرة العامة التي أقيمت في الاجتماع الخامس لمجلس الكنائس العالمي (نيروبي، ١٩٧٥). فقد دُعي لأول مرة خمسة أشخاص من أديان أخرى لاجتماع مجلس الكنائس العالمي باعتبارهم ضيوف الشرف، وشاركوا في جزء من النقاشات حول "البحث عن مجتمع"، حيث تطرق الحديث إلى قضية الحوار. وركزت النقاشات كاملة الأعضاء التي تناولت التقرير الصادر حول هذا الجزء على الاختلاف الشديد داخل الكنيسة حول موضوع الحوار. أعرب البعض عن تخوفهم من أن يؤدي الحوار إلى حلول توفيقية، أو أن يعرّض العقيدة للخطر من حيث تفرد وحي المسيح وحقيقته المطلقة، أو أن يهدد مهمة تعتبر أساسية لوجود الكنيسة ذاتها.

(٥) "مؤتمر واشنطن للتحالف بين الأديان"، إرشادات للحوار بين الأديان، http://www.religioncommunicators.org/inter-faith_IFCguidelines.html تم الوصول إليه يوم ٢٠٠٧/١٠/٣

(٦) هناك ثلاثة تواريخ على الأقل مقترحة ليوم ميلاد فتح الله كولن(أ)، لكن عدم معرفة التاريخ الدقيق ليس له أي تبعات. إن التأثير الفوري لأزمة الحرب على الأطفال في سن ما قبل الدراسة أكبر منه على الأطفال المولودين في مناطق تمزقها الحروب، ووقع رؤية أعضاء الأسرة والأصدقاء يتعرضون للقتل أكبر منه على الأطفال المولودين في مناطق أخرى. يرجع فهمي المبكر لبيئة الأزمة الكلية في منتصف القرن العشرين لسنوات دراستي في المدرسة الابتدائية في نهاية الحرب. (أ) [يشير الموقع الإلكتروني لحركة كولن إلى يوم ٢٧ أبريل ١٩٤١، والموقع الإلكتروني لمنتدى الرومي للحوار بين الأديان إلى شهر نوفمبر ١٩٣٨، وجولاي عام ٢٠٠٧، مستشهدًا بروي إلى يوم ٢٧ أبريل ١٩٣٨.]

(٧) راجع رسالة وايزمان إلى تشامبرلين، صحيفة "تايمز"، لندن، يوم الأربعاء ٦ سبتمبر ١٩٣٩، ص. ٨.

(٨) تم التأكيد على حياد تركيا عبر اتفاقات مساعدة مشتركة أبرمتها مع بريطانيا وفرنسا، ومعاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا، وقدرتها على مواصلة حركة المرور إلى الاتحاد السوفييتي عبر البحر الأسود.

(٩) "لدينا حديث نبوي مذكور بالإجماع في أغلب كتب الحديث يتحدث عن نزول عيسى في آخر الزمان. نحن لا نعرف إن كان سيعاود الظهور فعليًا بجسده، لكننا نعرف أن ذلك سيحدث في نهاية الزمان، وأن قِيم الحب والسلام والإخاء والعفو والإيثار والرحمة والنقاء الروحي ستعلو، كما كانت في وقت عيسى. علاوة على ذلك، نظرًا لأن المسيح نزل إلى اليهود ولأن كل الأنبياء العبريين أعلوا من شأن هذه القيم، سيكون من الضروري إقامة حوار مع اليهود والحفاظ على علاقات وثيقة وتعزيز التعاون بين الإسلام والمسيحية واليهودية." [فتح الله كولن، ٢٠٠٣/٠٦/١١]

(١٠) "أمانة الفاتيكان العامة لغير المسيحيين" (١٠ مايو ١٩٨٤) موقف الكنيسة من أتباع الأديان الأخرى: تأملات وتوجيهات حول الحوار والمهمة.

(١١) "لا يستتبع الحوار بين الأديان إضعاف عقيدة المسيحيين، وفقًا للتوجيهات. أو غض الطرف عن نور الحقيقة في الأديان الأخرى. من الأمور التي تضر جدًّا بالحوار بين الأديان اعتقاد الشخص الكاثوليكي أن كل الأديان متشابهة في الأصل".

(١٢) يوضح ألاتاس أنه خلال القرون الثلاثة الأولى من عمر الإسلام، ظهرت أعمال عديدة تدحض المسيحية، وهناك فهرس يضم قائمة بالكتب العربية لعدة مؤلفين تناولوا مبادئ العقيدة المسيحية. يشير ألاتاس إلى أن النقاش حول المسيحية لم يكن دائمًا من جانب واحد. بل كانت هناك حوارات متبادلة كثيرة بين العلماء المسلمين والمسيحيين، ومن أوائل المسيحيين الذين "أقاموا مناظرات" مع المسلمين القديس يوحنا الدمشقي، وكانت هناك مناظرة بين البطريرك النسطوري تيموثاوس الأول والخليفة المهدي.

بيم فيلهلموس فالكينبيرج

يعمل أستاذ لاهوت في قسم دراسات اللاهوت والأديان بجامعة رادبود في نايميخين. تركز أبحاثه على الحوار المسيحي الإسلامي في سياق الشراكة الإبراهيمية، سواء في الحاضر أو الماضي. تضم أعماله المنشورة أطروحات حول القديس توم الأكويني "كلمات الرب الحي"، والحوار الإبراهيمي في العصور الوسطى "الحلقات الثلاثة"،والحوار بين الأديان "الحوار الجدلي" ومستقبله في "دراسات في الحوار بين الأديان". خلال إجازة تفرغه من جامعة نوتردام، ألّف كتابًا عن الحوار الإسلامي المسيحي واللاهوت في سياق الشراكة الإبراهيمية، يحتوي الكتاب على قراءة نصوص للغزالي وسعيد النورسي وفتح الله كولن من منظور لاهوتي إسلامي مسيحي مقارن.

مساهمة فتح الله كولن

في دعم الحوار الإسلامي المسيحي في سياق التعاون الإبراهيمي

يجد المسيحيون المشاركون في الحوار مع الإسلام فتح الله كولن واحدًا من أهم شركاء الحوار المسلمين المعاصرين. توماس مايكل من أوائل علماء اللاهوت المسيحيين الذين يفطنون إلى مكانة كولن، فنراه يقول إن شهرة كولن باعتباره ناشطًا في مجالي التعليم والتواصل العام أكبر منها باعتباره مفكرًا أو كاتبًا[1]. لذا من المتوقع أن يلتقي المرء بأتباع كولن أثناء المشاركة في حوار بين الأديان قبل أن يكون قد تعرّف على أفكاره حول الحوار. وهذا ما حدث معي بالضبط.

أعملُ عالم لاهوت مسيحي في جامعة رادبود في نايميخين بهولندا، وينطوي عملي على الدخول في حوار مع المسلمين. وقد سعدت بقبول دعوة على العشاء -أنا وزوجتي التي تعمل معلّمة- أرسلها الفرع المحلي لمؤسسة الإسلام والحوار في هولندا. كنت في تلك الفترة، عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بأشهر قليلة، مهتمًّا جدًّا بالعلاقة بين الدين والعنف بوصفها قضية الساعة. أثناء إعداد ندوة حول الرب والعنف في الأديان الإبراهيمية الثلاثة[٢]، لفت انتباهي أمر أعتبره تناقضًا مهمًّا في التمثيل الذاتي للإسلام لدى مؤسسة الإسلام والحوار. تنشر المؤسسة على موقعها الإلكتروني بيان مهمتها، وهو مكتوب بكلمات سلمية تؤكد أن العنف والإرهاب لا مكان لهما في الإسلام. غير أن كتيّب العلاقات العامة للمؤسسة يحتوي على الاقتباس التالي: "المحبة ونبذ البغض أهم سمات القلب العامر بالإيمان". تعكس هذه العبارة، في رأيي، حقيقة الإيمان بالله وما يكتنفه من غموض أفضل من بيان المهمة الذي يبدو مبالِغًا في المثالية. يمكن تفهّم لجوء المسلمين عقب أحداث ١١ سبتمبر للدفاع الاعتذاري في ظل انتشار أجواء رُهاب الإسلام، لكن عبارة أن العنف لا مكان له في الإسلام لا تجسد العلاقة المعقدة بين الدين والعنف بصورة توفيها حقها. إن كنتُ أفهم الاقتباس بصورة صحيحة، فإنه يعني أن الأشخاص المتدينين يحبون كل ما هو خير ويمقتون كل ما هو شر. أي إن الدين ينطوي على قوة إيجابية وأخرى سلبية، والمهم بالنسبة للبشر هو تحويل القوة السلبية إلى قوة اجتماعية بنّاءة. لن أخوض في تفاصيل التبعات الدينية لذلك، بل سأركز على مصدر الاقتباس. بعد البحث والتمحيص، عثرت على اقتباسات مماثلة في أعمال فتح الله كولن، مثل: "أهم سمة تميز الروح التي تفيض بالإيمان هي محبة الأعمال التي تجسد كل أنواع الحب، ومعاداة كل الأعمال التي تحث على العداء"[٣].

يرى كولن أن القوتين الإيجابية والسلبية ليستا على نفس القدر من الأهمية. يقدم كولن تفسيرًا مثيرًا للاهتمام للآية ﴿**لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ**﴾ (المائدة: ٥١)، ويؤكد على ضرورة تأويلها في سياقها. قد يكون من الضروري في بعض الحالات المحددة ألا يتعاون المسلمون مع اليهود والنصارى؛ لكن التعاون أفضل بوجه عام، كما يخبرنا القرآن: ﴿**وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ (النساء: ١٢٨)[٤]، تساعد هذه القاعدة التفسيرية كولن على تجنب الوقوع في أحد النقيضين؛ السلمية غير الواقعية من جانب، والجدال العدواني من جانب آخر. يجب نشر السلام بين مختلف البشر والأديان تحت أي ظرف، ما لم يقم بعض الأشخاص بانتهاك العدالة لدرجة تستتبع معاداة الجائر. لا شك أن التسامح فضيلة مهمة يجب نشرها دائمًا، ومع ذلك لا بد أن يظل المرء

واقعيًّا أيضًا. ربما يكون التسامح والعفو أفضل تصرف على المستوى الفردي، لكن ربما يفرض القانون تحقيق العدل والمعاملة بالمثل[٥].

قد يكون من المفيد في بعض الأحيان أن تُدير الخد الآخر (إشارة صريحة إلى قول المسيح في إنجيل متّى الإصحاح ٥: ٣٩)، لكن في أحيان أخرى، الأحرى أن يكون التسامح بحساب. يقول كولن: "إن إبداء الرحمة تجاه الكوبرا يعني ظلم الأشخاص الذين تعرضوا للدغ"[٦].

في إطار مشاركتي في مؤتمر "فتح الله كولن التركي: حياته وأعماله"، أقترح قراءة واحد من أهم أعمال كولن حول موضوع الحوار بين الأديان، مع وضع هذه القاعدة التفسيرية في الاعتبار. صحيح أن قراءتي لنصوص كولن قراءة من منظور مسيحي، لكنني سأركز على تعليقاته حول الحوار الإسلامي المسيحي. وأرجو في النهاية أن أوضح ضرورة تضمين اليهود في هذا الحوار، وطريقة القيام بذلك.

أهمية الحوار بين الأديان

لا يشتهر كولن تحديدًا بأصالة أفكاره، خلافًا لأبيه الروحي سعيد النورسي (١٨٧٦-١٩٦٠). بل إن القاعدة التفسيرية التي أشرنا إليها منذ قليل مأخوذة من سعيد النورسي[٧]. ويمكن العثور عليها في الخطبة الشامية للنورسي وبعض أجزاء رسائل النور أيضًا. ينطبق الشيء ذاته على اقتباس حب الخير وبغض الشر، فقد قال سعيد النورسي في الخطبة الشامية عام ١٩١١: إن "أكثر شيء يستحق الحب هو الحب، وأكثر شيء يستحق العداء هو العداء"[٨].

إذن ليست الأصالة أهم ما يميز كتابات كولن، بل طريقته في المزج بين المعارف الصوفية والتفسيرية في الإسلام مع إشارات إلى فلاسفة وعلماء لاهوت غربيين. كتب فتح الله كولن الكثير حول الحوار، لدرجة أن أحد المجلدات التي تضم أعماله يحمل عنوان "داعم الحوار"[٩]. ولعل أهم أعمال كولن مقال بعنوان "ضرورة الحوار بين الأديان"، الذي تم تقديمه في "مؤتمر أديان العالم" بمدينة كيب تاون في جنوب إفريقيا عام ١٩٩٩، ونُشر لاحقًا في نسخ إنجليزية عدة مرات[١٠]. يتألف المقال من مقدمة، وخمسة أجزاء قصيرة، وخاتمة.

في المقدمة، يؤكد كولن أنه لا غنى عن الحوار بين المسيحيين والمسلمين، في ظل النزعة المادية التي تسود العالم حاليًا. ويشير إلى حديث إسلامي يتنبأ بعودة المسيح في آخر الزمان، مما يعني أن القيم الأساسية في التقاليد اليهودية والمسيحية والإسلام ستعم في النهاية. الغريب أن هذا الحديث أيضًا وارد في الخطبة الشامية التي ألقاها سعيد النورسي في دمشق: "إن الإسلام وحده سيكون حاكمًا على قارات المستقبل حكمًا حقيقيًّا ومعنويًّا، وأن الذي سيقود البشرية إلى

السعادتين الدنيوية والأخروية ليس إلا الإسلام والنصرانية الحقّة المنقلبة إلى الإسلام والمتفقة معه والتابعة للقرآن بعد تحررها من التحريفات والخرافات"[١١]. يتضح من كتابات سعيد النورسي أن الإسلام سيكون القوة المهيمنة، وأن المسيحية لن تتمكن من التعاون مع الإسلام إلا بعد تطهير نفسها من الخرافات، غير أن تفسير كولن للحديث يرى الإسلام والمسيحية قوتين متساويتين. أضف إلى ذلك الإشارة الصريحة إلى تضمين اليهود أيضًا. يشير كولن إلى الفيلسوف اليهودي مايكل فيشوجرود الذي قال -في إحدى جلسات مجموعة الدراسات الإسلامية في المؤتمر السنوي للأكاديمية الأمريكية للأديان في نيويورك عام ١٩٧٩- إن النقاط المشتركة بين اليهود والمسلمين كثيرة كالتي بين اليهود والمسيحيين[١٢]. ويضيف كولن أن المسلمين لطالما تعاملوا مع اليهود بطريقة منصفة بوجه عام على مر التاريخ[١٣].

صعوبات تواجه المسلمين أثناء الحوار

عقب هذه الملاحظات الافتتاحية، يذكر كولن أربعة أسباب وراء إحجام المسلمين عن الحوار. أولاً، تعرض العديد من المسلمين للقتل على يد المسيحيين خلال القرن الأخير، الأمر الذي يدفع مسلمين كُثُرًا للاعتقاد أن الغرب يواصل هذا الاعتداء المنظم بأساليب غير ملحوظة، مثل الحوار. وبوصفي مسيحيًّا، سمعت هذا الشك عدة مرات؛ ليس فقط من مسلمين ويهود، بل من هندوس وبوذيين أيضًا. يتشكك أتباع الديانات الأخرى غالبًا لأنهم يلاحظون أن الحوار ما زال مرتبطًا، في أذهان العديد من المسيحيين، بالأنشطة التبشيرية ومحاولات نشر الإنجيل[١٤]. وهم محقون في كون الأمر غريبًا بعض الشيء، لكنه من جانب آخر نتيجة طبيعية للسمة التبشيرية التي تشترك فيها المسيحية والإسلام. أعتقد أن التبشير المسيحي والدعوة الإسلامية لا يختلفان كثيرًا، لأن كل دين منهما يرجو أن تتبع البشرية كلها ما يعتبره الطريق القويم. ليس هناك ما يسوء في محاولات الإقناع ذاتها، ما دام المرء يدرك أنها مساعٍ متبادلة. غير أن اختلال ميزان القوى قد يعرّض هذه المساعي المتبادلة للخطر. وهنا تكمن أشد صعوبات الحوار بين المسيحيين والمسلمين. لذا يلفت كولن الانتباه إلى تأثير الاستعمار الباقي من جهة، والرغبة في الاستقلال عن الغرب من جهة أخرى. وأنا أرى أن شكوك المسلمين بشأن دعوات المسيحيين للحوار شكوك سياسية في الأساس، وليست دينية. عندما أسافر إلى بلد إسلامي، في الشرق الأوسط على سبيل المثال، ألاحظ أن الكثيرين يطلبون مني تبرير سياسات الغرب، وسياسات الولايات المتحدة تحديدًا.

قد تكون الأسباب الثلاثة الأولى لتشكك المسلمين في الحوار سياسية في طبيعتها، لكن السبب الرابع ديني؛ وهو الصورة المشوهة التي تُظهر الإسلام دينًا منحطًا والنبي شخصًا مخادعًا. ولا بد أن أعترف هنا أن المسيحية مسؤولة عن هذا التشويه في أغلب المناسبات التي جمعتها بالإسلام على مر التاريخ. هناك ترابط شديد بين الصورة التي كوّنتها المسيحية عن الإسلام، كما وصفها نورمان دانيال في كتابه "الإسلام والغرب"، وتقاليد الاستشراق الثقافية، كما وصفها إدوارد سعيد[١٥]. يعد عالم اللاهوت المسيحي ينح بن سرجون بن منصور، المعروف باسم القديس يوحنا الدمشقي، من أوائل الدعاة لهذا التقليد وأشدهم تأثيرًا. فهو يتحدث في الفصل الأخير من كتابه حول الهراطقة عن ذلك الدين الجديد، ويصفه بأنه خرافة مضللة ونذير بقدوم المسيح الدجال، ويصف محمدًا بالنبي "الزائف"[١٦].

نظرًا لأن يوحنا نشأ وتعلم في بلاط الدولة الأموية في دمشق نحو عام ٦٨٠ بعد الميلاد، فقد كانت لديه معرفة كافية بما يتحدث عنه. لكنه لجأ إلى تقييم هذه الظاهرة الدينية الجديدة وفقًا للمعايير الأساسية للمسيحية فقط، ونظرًا لأن القرآن يضم روايات عن يسوع المسيح، فقد استطاع يوحنا أن يحكم عليها بعدم الكفاءة وبالتالي بالهرطقة. في تلك الفترة، لم يكن الدين الجديد الذي دعا إليه محمد يُعرف باسم الإسلام، لذلك استخدم يوحنا الدمشقي ثلاثة أسماء ترتبط بقصص إبراهيم للإشارة إلى أتباع هذا الدين: الإسماعيليون Ishmaelites (أي نسل إسماعيل، ابن إبراهيم البكر)، والهاجريون Hagarenes (نسل هاجر والدة إسماعيل، لكنه قد يعني أيضًا المهاجرين)، وساراسين (المشرقيين) Saracenes. أصبح هذا الاسم الأخير الاسم الشائع للمسلمين خلال القرون الوسطى، ويرى يوحنا الدمشقي أنه يعني "أولئك الذين تركتهم سارة في عوز واحتياج"، لكن الكلمة قد تعني أيضًا الأشخاص القادمين من الشرق[١٧].

تؤكد الإشارات إلى ذرية إبراهيم أن المسيحية والإسلام تربطهما علاقة قرابة وينحدران من نفس الأصل، وكذلك اليهودية. في هذه العلاقة، يستطيع الدين الأحدث تحديد هويته من خلال إيجاد رابط مع الدين الأقدم. يعترف الإسلام نظريًّا -ولا يحدث ذلك دائمًا في الواقع- بالكتب السماوية لليهود والنصارى، ويطلق عليهم اسم "أهل الكتاب". وفي الوقت ذاته، يدّعي الإسلام أنه يمتلك النص الصحيح غير المحرّف بين هذه الكتب. من الجانب الآخر ولنفس السبب، يجد الدين الأقدم صعوبة كبيرة في إيجاد رابط مع الدين الأحدث الذي يزعم أنه قد أدى مهمته. إن كان المسيحيون يؤمنون أن المسيح كلمة الله الأخيرة -كما يؤمن المسلمون أن القرآن كلمة الله الأخيرة- فسيجدون صعوبة بالغة في الإقرار بنبوة محمد ورسالته، لأن ذلك

يتعارض مع إقرارهم بأن المسيح كلمة الله الأخيرة. توضح هذه العلاقة السبب الذي دفع المسيحيين لتشويه صورة الإسلام والنبي محمد على مر التاريخ، رغم أنه تصرف غير مقبول.

الحوار ضرورة

بعد تناول فتح الله كولن هذه الصعوبات، ينتقل إلى جوهر رسالته: "أصبح الحوار بين الأديان ضرورة الآن، وأول خطوة لبدء الحوار نسيان الماضي، والتغاضي عن الخلافات الجدلية، والتركيز على النقاط المشتركة التي تزيد عن النقاط الجدلية بكثير"[١٨] غير أن كولن لا يشرح بمزيد من التفصيل عبارته القاطعة أن الحوار أصبح ضرورة في الوقت الحالي. قد يظن المرء أنه يحاول أن يناقض العقلية الجدلية الماضية بعقلية حوارية حاضرة، لكن هذا التفسير غير منصف. فبعد بضع صفحات، يذكر كولن أن القرآن يحث المسلمين على احترام أتباع الديانات الأخرى، والإيمان بالأنبياء السابقين وكتبهم. وهكذا فإنه يؤكد أن الحوار ليس من متطلبات العصر الحديث فحسب، بل من توجيهات القرآن؛ المصدر الأساسي في الإسلام.

يواصل كولن حديثه مشيرًا إلى طريقة إقامة الحوار؛ وهي نسيان خلافات الماضي والتركيز على النقاط المشتركة. وبوصفي عالم لاهوت مسيحيًا، أريد تسجيل بضع ملحوظات تتعلق بهذه الطريقة. أولاً، ألاحظ وجود تقارب بين منهج فتح الله كولن والمنهج الذي حدده المجمع الفاتيكاني الثاني، في بيان "في عصرنا" Nostra Aetate حول علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية، مع الإشارة إلى المسلمين على وجه الخصوص. ينص البيان على ما يلي: "وإذا كانت قد نشأت، على مر القرون، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفوا بالخلاص إلى التفاهم المتبادل، ويصونوا ويعززوا معًا العدالة الاجتماعية والخيور الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع الناس"[١٩].

لديّ اعتراض على هذه النقطة، بالرغم من اتفاق فتح الله كولن والمجمع الفاتيكاني الثاني عليها. فمثل هذه الدعوات لتناسي الاختلافات تخاطر بتضييق نطاق الحوار بين الأديان، بحيث يصبح مناقشة مهذبة لا تحقق نفعًا كبيرًا في حين يحدد العنف الديني سياق الحوار. قد يكون التركيز على النقاط المشتركة استراتيجية مهمة في ظل وجود شكوك متبادلة، لكن إذا أردنا أن يغير الحوار عقلية الأطراف المشاركة، فلا بد من "التصالح مع ذكريات الماضي". صيغت هذه العبارة لأول مرة في الحوار المسيحي المسكوني، للإشارة إلى ضرورة النظر إلى الخلافات التاريخية في ضوء جديد للنجاح في فهم الآخر. ومن هذا المنطلق أقول: إن الخلافات مهمة

مثلها مثل النقاط المشتركة للوصول إلى فهم متبادل بين المسيحيين والمسلمين. من جهة أخرى، يبدو أن المجمع الفاتيكاني الثاني لديه أهداف مشتركة محددة؛ وهي اتفاق المسيحيين والمسلمين ببساطة على نشر قيم عامة مثل السلام والعدالة الاجتماعية. سأتناول طريقة التركيز على النقاط المشتركة لاحقًا، وأشير إلى الإسهامات التي يُحتمل أن يقدمها اليهود في الحوار بين الأديان الإبراهيمية.

أثناء حديث كولن عن ضرورة الحوار، يأتي على ذكر إبراهيم في العبارة التالية، موردًا اقتباسًا لعالم الإسلاميات المسيحي الفرنسي لوي ماسينيو، الذي يصف الإسلام بأنه "عقيدة إبراهيم التي أعاد محمد إحياءها"[٢٠] وهكذا، بإعادة إحياء عقيدة إبراهيم، يستطيع الإسلام تحقيق مهمته الدعوية في عالم ما بعد المسيحية. يقول سيدني جريفيث -وسيط كولن لدى ماسينيو- إن أفكار ماسينيو حول أهمية الإسلام الدينية ستغير آراء المسيحيين في المسلمين تغييرًا جذريًّا إذا قبلها أغلب المسيحيين[٢١]. وهنا، يذكر كولن عدة أصوات مسيحية أخرى تدعم دعوة الحوار مع المسلمين. كما يذكر بعض النصوص المحفزة من بيانات المجمع الفاتيكاني الثاني، والبابا بولس السادس، والبابا يوحنا بولس الثاني. غير أنه لا يلفت النظر إلى أن المجمع الفاتيكاني الثاني يبدو أنه يؤيد طلب ماسينيو الإقرار بأن إبراهيم أبو اليهود والنصارى والمسلمين، في نصّين مهمّين جدًّا. النص الأول مقتبس من "دستور عقائدي في الكنيسة" Lumen Gentium. تشير فقرة، حول العلاقة بين الكنيسة وأولئك الذين لم يقبلوا الإنجيل، إلى أن "تصميم الخلاص إنما يشمل الذين يعترفون بالخالق، ومن بينهم أولاً المسلمون الذين يقرون أن لهم إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الإله الواحد الرحيم، الذي سيدين البشر في اليوم الأخير"[٢٢].

يحمل هذا النص أهمية عظمى للحوار المسيحي الإسلامي، نظرًا لأنه يذكر بوضوح أن المؤمنين من أتباع الدينيْن يؤمنون بالإله الواحد نفسه الذي سيدين الجميع. كذلك يبدو أن النص يقر بزعم المسلمين أنهم يتبعون عقيدة إبراهيم. وفي حين يتلاقى اليهود والمسلمون في زعمهم أنهم ورثة إبراهيم الفعليين من نسل إسحاق وإسماعيل على التوالي، يتلاقى المسيحيون واليهود في زعمهم أنهم ورثة إبراهيم الروحيون. ونلاحظ نفس الإقرار في بيان "في عصرنا" Nostra Aetate السابق: "وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار أيضًا إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم الضابط الكل خالق السماء والأرض المكلم البشر. ويجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما يخضع له إبراهيم الذي يُسند إليه بطيب خاطر الإيمان الإسلامي"[٢٣]. في هذا النص، يستخدم المجمع الفاتيكاني الثاني كلمة "مسلم" للإشارة

إلى الأشخاص الذين يخضعون لأوامر الله باتباع عقيدة إبراهيم ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ (آل عمران: ٦٧)[٢٤].

قد يكون ميل المسيحيين والمسلمين لاعتبار إبراهيم رمز الإيمان عاملاً مساعدًا في تيسير الحوار بين الدينيْن؛ غير أن اعتبار إبراهيم المثل الأعلى، على المستوى الآدمي، أمر لا يخلو من عدة مشاكل، كما يتضح من القراءة المتأنية للقصص التي تتحدث عن إبراهيم في الكتب العبرية المقدسة. بعيدًا عن مختلف أشكال العنف الجنسي وانتهاك السلطة الواردة في هذه القصص، يبدو أن إيمان إبراهيم ينطوي على الاستعداد للتضحية بحياة إنسان؛ وهو تهديد إرهابي يشوب فكرة الاستسلام المطلق لمشيئة الرب[٢٥].

في ختام حديث كولن عن إقرار المسيحيين بمهمة الإسلام الدعوية الخاصة في عصر العلمنة الذي نعيشه، يشير إلى عبارة مهمة قالها البابا يوحنا بولس الثاني. فهو يسوق صلاة المسلمين مثلاً للمسيحيين، لأن المسلمين عمومًا ما زالوا يعبدون الله بأفضل الطرق وأكثرها إخلاصًا[٢٦]. بالفعل أعرب البابا السابق عن هذا الرأي عدة مرات، وليس في سياق الحديث عن الصلاة فحسب، بل أثناء الحديث عن صوم رمضان أيضًا[٢٧]. يقول كولن إن المسيحية والإسلام قد يتعلم أحدهما من الآخر؛ يتميز الغرب بتفوقه التكنولوجي والعلمي، والإسلام بحماسه الديني. قد يكون الإسلام -بوصفه دين الاستسلام لله- حافزًا لتذكير الشعوب الغربية بأصولها الدينية. يلعب الإسلام هذا الدور بالفعل في المناظرات العامة الهولندية، حتى إن كان ذلك بصورة سلبية. لكن الغرب يرمز هنا إلى العالم العلماني في مقابل الإسلام الذي يرمز للقوة الدينية. وأنا أرى أنه يُمكن التعامل بمزيد من الإنصاف مع التواجد المسيحي في العالم الغربي باتباع نفس فكرة النموذج المتبادل، أو الاقتداء الروحي، كما أفضل أن أسميها. قد يكون تطبيق هذه الفكرة مثمرًا جدًّا بين أتباع الأديان الإبراهيمية تحديدًا، أو كما يطلق عليهم القرآن "أهل الكتاب". يخاطب القرآن هؤلاء اليهود والمسيحيين والمسلمين قائلاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: ٤٨). لعل قراءة مسيحية لهذا النص[٢٨] تربطه بأفكار القديس بولس حول "الغيرة الخلاصية" بين اليهود وغير اليهود لإدراك رحمة الله في المسيح. يوضح ذلك أهمية الاختلافات بين الأديان، ودورها التحفيزي المتبادل. ويمكن ضرب المثل مرة أخرى بحياة لوي ماسينيو، وإدراكه قيمة إبراهيم في عالم الإسلام[٢٩] من خلال "عبور" ماسينيو إلى عالم الإسلام، اكتشف القيمة الحقيقية لأصوله المسيحية، بحيث يمكننا القول إن تعامله مع الإسلام كان السبب في "عودته" إلى المسيحية[٣٠]. مع إن فتح الله كولن لا يستخدم مصطلح "الاقتداء الروحي"، لكنني واثق أنه سيؤيد فكرة الانتفاع من الاختلافات بين

الأديان في تحفيز الحوار. فهو يبين دائمًا في حياته وكتاباته كيف تشجع المصادر الإسلامية المرء على الحوار مع الأديان الأخرى. ولتنجح هذه المساعي، من الضروري الإقرار أولاً بهذه الأديان، دون الاقتصار على اعتبارها أنظمة سياسية فحسب. وهنا يكمن خطأ الغرب في تعامله مع الإسلام، كما يشير كولن في ختام هذا القسم. ينظر الغرب إلى الإسلام باعتباره قوة سياسية، أو أيديولوجية، أو تهديدًا إرهابيًا. وربما يكون إلقاء نظرة مسيحية متفحصة على الإسلام أكثر فائدة في هذا السياق.

دعوة الإسلام العالمية للحوار

يتحدث كولن في القسم الثالث من المقال عن القرآن ودعوة أهل الكتاب ﴿**تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**﴾ (آل عمران: ٦٤). إنها دعوة الإسلام الأساسية إلى الحوار. إذا لم يقبل الآخرون الدعوة، فيمكنهم المضي في سبيلهم وسيظل المسلمون متمسكين بطريقهم. غير أن الاختلافات لن تؤدي إلى خلافات، بل إلى الإقرار بوجود الله بطرق مختلفة. يستعير كولن في هذا الصدد مشهدًا من رؤيا سعيد النورسي الذي ردد آية ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ (الفاتحة: ٥) في جامع بايزيد في إسطنبول وهو يصف ثلاث حلقات أو صفوف من المصلين الذين يعبدون الله.[٣١] في الصف الأول، يقف المسلمون مع غيرهم ممن يُقرون بوحدانية الخالق. لكن مخلوقات أخرى، آدمية وغير آدمية، تسبح الله وتمجده. وبهذه الرؤيا، يعلن كولن أن الإسلام طريق واسع لخلاص البشرية جمعاء.

في القسم الرابع المعنون "طريقة التعامل مع أتباع الأديان الأخرى"، يركز كولن مرة أخرى على النقاط المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب؛ فالقرآن يُقر بالأنبياء السابقين وكتبهم. لهذا يجب ألا يفرح المسلمون بهزيمة الآخرين عند مناقشة أمور العقيدة. ويذكّرنا كولن ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (العنكبوت: ٤٦)[٣٢]. أتفق مع كولن -الذي يستعين بتفسير سعيد النورسي مرة أخرى- في أن كلمتي الجدال والمناظرة غالبًا ما تُذكران في القرآن بمعنى سلبي يدل على جهل البشر[٣٣]. لكن في الوقت ذاته، أنا مقتنع أن قواعد الجدال المذكورة في القرآن وفي التقاليد الإسلامية اللاحقة ما زالت ذات مغزى في تحديد برنامج عمل الحوارات الحديثة بين الأديان. على سبيل المثال، يتذكر المرء قواعد تنظيم الخلافات داخل البلاط أو في مجالس العلماء ذوي الخلفيات الدينية المختلفة في البلاط العباسي[٣٤]. أؤكد مرة أخرى على أهمية الاختلافات في الحوار بين الأديان الإبراهيمية، بصورة أقوى مما يفعل فتح الله كولن.

لذلك أقول إن الجدال والخلافات قد تكون إسهامات مهمة في الحوار بين الأديان، شريطة أن تكون "بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"، كما ينص القرآن. إذا كنا على استعداد أن يتعلم أحدنا من الآخر بهدف تعميق الإيمان في قلوبنا بدلاً من المباهاة والتناحر، فربما نقترب من تحقيق "الثراء المتبادل"، بل وربما "التغيير الشامل المتبادل" باعتباره أحد أهداف الحوار بين الأديان[٣٥].

نشر القيم الإيجابية

يتحدث كولن في القسم الأخير من مقاله "أهمية الحوار بين الأديان" عن القيم الأساسية العالمية الأربعة التي يؤيدها الدين، وبالتالي يجب تعميمها في الحوار بين الأديان. بل إن هذه الكلمات الأربعة: الحب والرحمة والتسامح والعفو؛ قد تكون موضوعات مهمة جدًّا في الحوار بين المسيحيين والمسلمين، لأن كليهما يستطيع تقديم تعاليم روحانية عميقة تتعلق بهذه القيم. علاوة على ذلك، سيكون من المفيد أن يتعاون المسلمون والمسيحيون في نشر هذه القيم باعتبارها الأساس الأخلاقي للبشرية كلها. لكن القارئ سيلاحظ أنني أؤيد برنامج عمل الحوار المسيحي الإسلامي، مع التركيز على الاختلافات بين الدينين وطريقة التعامل السلمي معها. بعبارة أخرى، أنا أؤيد إجراء تحليل سياقي بهدف تقييم مكانة الحوار ووظيفته المحددة بين أي دينيْن.

إن رؤيتي لأهمية الاختلافات بوصفها وسيلة لتعزيز الحوار بين الأديان مستمدة من شركائي في الحوار اليهوديين. بعيدًا عن تأثير إيمانويل ليفيناس واسع النطاق، وإصراره على أهمية فلسفة الغيريّة، فإن رواد الحوار بين الأديان، أمثال جوناثان ساكس وجوناثان ماجونيت، قد نجحوا في لفت نظري إلى أهمية الاختلافات[٣٦]. أشار ألون جوشين جوتشتاين تحديدًا إلى أن اليهود غالبًا ما اقتصر دورهم في الحوارات المسيحية الإسلامية حول إبراهيم على كونهم متفرجين معنيين[٣٧]. وقد أشرت إلى بعض أسباب ذلك في السابق. بالرغم أن الاستخدام الحديث لمصطلح "الأديان الإبراهيمية" قد بدأ في سياق الحوار بين المسيحيين والمسلمين، لا يستطيع اليهود الحديث عن الضغوط التي تتعرض لها عقيدة إبراهيم كما هو الحال مع المسلمين والمسيحيين. أما إذا أردنا مراعاة الأمانة مع التراث الإبراهيمي، فلا يمكننا استبعاد الأصوات اليهودية من حوارنا المسيحي الإسلامي. بل يجب علينا السماح لها بالمشاركة في الحوار، حتى وإن كانت مشاركتها مزعجة في الأغلب. يقدم فريد إسحاق حجة مقنعة عندما يقول إن الحوار المسيحي الإسلامي قد يصبح حوارًا بين السلطات إذا لم ينفتح على الصورة الواسعة التي رآها سعيد النورسي في جامع بايزيد[٣٨].

لكن الحوار بين المسيحيين واليهود يمكن بالطبع أن يكون حوارًا بين السلطات أيضًا. يشير التحليل السياقي إلى أن المسلمين يميلون إلى التأكيد على النقاط المشتركة، نظرًا لكثرة ربط دينهم بالعنف وغيره من الشرور، ولأنهم آخر الأديان الإبراهيمية. في حين يميل اليهود للتأكيد على الاختلافات نظرًا لأنهم أقلية، ولأنهم من أوائل الأديان الإبراهيمية. أما موقف المسيحيين فإنه غريب جدًّا، لأنهم يتعاملون بطريق مختلفة مع أشقائهم الأكبر اليهود ويريدون مناقشة النقاط المشتركة معهم، في حين يجد اليهود الاختلافات أكثر أهمية. على الصعيد الآخر، لطالما شعر المسيحيون بالحاجة إلى إبراز اختلافاتهم مع أشقائهم الأصغر المسلمين، في حين يفضل مسلمون كثيرون مناقشة أوجه التشابه. أضف إلى ذلك أنه كثيرًا ما يُنظر إلى المسيحيين باعتبارهم مواطنين غير متدينين في العالم الغربي الذي تختبئ فيه السلطات. وبسبب "المصالح المتضاربة" و"العلاقات التاريخية" فإن "السياق العالمي" يفرض أن يكون الشريك المسيحي هو الشريك الأقوى في الحوار، لهذا من المهم أن يكون المسؤول عن تحديد برنامج أعمال الحوار الشريك الأقل قوة. قد يعني ذلك بالنسبة للمسيحيين في الغرب التأكيد على النقاط المشتركة في حوارهم مع المسلمين، والاختلافات في حوارهم مع اليهود. ومن هذا المنطلق، فإن إصرار فتح الله كولن على أن يكون الحب، والإيثار، والرحمة، والعفو، والتسامح دعائم الحوار يعتبر نقطة انطلاق ممتازة للحوار بين المسلمين والمسيحيين في السياق الواسع للأديان الإبراهيمية.

الهوامش

(١) القس اليسوعي توماس مايكل، "التجربة التركية في الحوار الإسلامي المسيحي. المفكر بديع الزمان سعيد النورسي والناشط فتح الله كولن"، في Travelling Together Beyond Dialogue: Peace and Dialogue in a Plural Society, Common Values and Responsibilities، ملبورن، الجمعية الأسترالية متعددة الثقافات، ٢٠٠٢، ص.ص. ٣٣-٤٠.

(٢) بيم فالكنبيرج، "الرب والعنف"، بودل، دار نشر "دامون"، ٢٠٠٢.

(٣) فتح الله كولن، "داعم الحوار"، علي أونال (مترجم) وألفونس ويليامز، فيرفاكس بولاية فرجينيا، دار نشر "فاونتين"، ٢٠٠٠، ص. ١٩٨. راجع أيضًا www.fethullahgulen.org.

(٤) فتح الله كولن، "الحب وجوهر الإنسانية"، أعده للنشر فاروق تونجر، ترجمه محمد أونال ونيلوفر كوركماز، إسطنبول، مؤسسة الصحافيين والكُتاب، ٢٠٠٤، ص. ١٦٧.

(٥) المرجع السابق، ص. ٩٤.

(٦) المرجع السابق، ص. ٢٠٧. أيضًا "داعم الحوار"، ص. ٢٦٠.

(٧) لمعرفة رأي النورسي في التعاون بين المسلمين والمسيحيين، راجع "الخطبة الشامية"، إسطنبول، دار نشر "سوزلر"، ١٩٩٦، ص. ٣٥، والرسالة الخامسة عشر من "رسائل النور"، إسطنبول، دار نشر "سوزلر"، ١٩٩٧، ص. ٧٨ف. راجع أيضًا القس اليسوعي توماس مايكل، "خواطر حول آراء سعيد النورسي في التفاهم الإسلامي المسيحي"، إسطنبول، دار نشر "سوز باسم ياين"، ٢٠٠٣، ص.ص. ٢٠-٣٢.

(٨) النورسي، "الخطبة الشامية"، ص. ٤٩.

(٩) فتح الله كولن، "داعم الحوار"، علي أونال (مترجم) وألفونس ويليامز، فيرفاكس بولاية فرجينيا، دار نشر "فاونتين"، ٢٠٠٠.
(١٠) النسخ الأصلية في صحيفة "تركش ديلي نيوز" يوم ١١-١٢ يناير، ٢٠٠٠، وفي مجلة "ذي فاونتن" من يوليو إلى سبتمبر ٢٠٠٠. تم نشر ترجمات إنجليزية مختلفة إلى حد ما لكتاب "داعم الحوار"، ص.ص. ٢٤١-٢٥٦ وفي فتح الله كولن، "مقالات ورؤى وآراء"، مجلة "ذي فاونتن"، راذرفورد بولاية نيو جيرزي، و"ذي لايت"، ٢٠٠٢، ص.ص. ٣٢-٤٣. تم نشر المقال بصورة مستقلة تحت عنوان "أهمية الحوار بين الأديان: منظور إسلامي"، في سلسلة "نوافذ على العقيدة"، سومرست بولاية نيو جيرزي، "ذي لايت"، مايو ٢٠٠٤.
(١١) النورسي، "الخطبة الشامية"، ص.ص. ٣٥-٣٦.
(١٢) راجع مايكل فيشوجرود، "الإسلام والمسيحية من منظور اليهودية"، في إسماعيل راجي الفاروقي (محرر) "ثلاثية الأديان الإبراهيمية"، أوراق بحثية مقدمة إلى مجموعة الدراسات الإسلامية التابعة للأكاديمية الأمريكية للأديان، واشنطن العاصمة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٠٢/١٩٨٢، ص. ١٦.
(١٣) تم التأكيد على فكرة كولن بخطوط عريضة في مارك كوهين، "تحت الهلال والصليب: اليهود في العصور الوسطى"، برينستون بولاية نيويورك، مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٤.
(١٤) راجع وثيقة "الحوار والبيان، خواطر وتوجيهات حول الحوار بين الأديان وبيان إنجيل يسوع المسيح"، قام المجلس البابوي للحوار بين الأديان ومجمع تبشير الشعوب بنشر هذا الإعلان المشترك في نشرة "برو ديالوج"، العدد ٢٦، ١٩٩١، ص.ص. ٢١٠-٢٥٠.
(١٥) نورمان دانيال، "الإسلام والغرب: صناعة الصورة"، أكسفورد، دار نشر "وانوورلد"، ١٩٩٣، الأصل عام ١٩٦٠؛ وإدوارد سعيد، "الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق"، هارموندسوورث، دار نشر "بنجوين"، ١٩٩٥، الأصل عام ١٩٧٨.
(١٦) راجع يوحنا الدمشقي، "كتابات عن الإسلام"، التقديم والتعليق والترجمة لآر لي كوز، مصادر مسيحية، ص. ٣٨٣، باريس، ١٩٩٢. أيضًا أدلبيرت ديفدز وبيم فالكينبيرج، "يوحنا الدمشقي: هرطقة الإسماعيليين"، في باربرا روجيما ومارسيل بورثيوس وبيم فالكينبيرج (محررون)، "الحلقات الثلاثة: دراسات سياقية في الثلاثية التاريخية لليهودية والمسيحية والإسلام"، لويفن، دار نشر "بيترز"، ٢٠٠٥، ص.ص. ٧١-٩٠.
(١٧) راجع ديفدز وفالكينبيرج، ص.ص. ٧٩-٨٠.
(١٨) كولن، "داعم الحوار"، ص.ص. ٢٤٤-٢٤٥.
(١٩) بيان "في عصرنا" Nostra Aetate رقم ٣. ترجمة المجمع الفاتيكاني الثاني. الوثائق الأساسية الستة عشر. ترجمة مراجعة جيدًا بلغة جامعة، تحرير أوستن فلانري، نورثبورت بولاية نيويورك، دار نشر "كوستيلو"، ودبلن، دار نشر "دومينيكان"، ١٩٩٦، ص.ص. ٥٧١-٥٧٢.
(٢٠) يشير كولن إلى مقال لسيدني جريفيث، "الاشتراك في عقيدة إبراهيم؛ عقيدة لوي ماسينيو"، Islam and Christian-Muslim Relations، العدد ٨، ١٩٩٧، ص.ص. ١٩٣-٢١٠. اقتباس ماسينيو في الصفحة ٢٠١.
(٢١) جريفيث، "الاشتراك في عقيدة إبراهيم"، ص. ١٩٨.
(٢٢) "دستور عقائدي في الكنيسة" Lumen Gentium رقم ١٦. ترجمة المجمع الفاتيكاني الثاني. الوثائق الأساسية الستة عشر، ص.ص. ٢١-٢٢.
(٢٣) بيان "في عصرنا" Nostra Aetate رقم ٣. ترجمة المجمع الفاتيكاني الثاني. الوثائق الأساسية الستة عشر، ص. ٥٧١.
(٢٤) القرآن الكريم. ترجمة جديدة للدكتور محمد عبد الحليم سعيد، أكسفورد بولاية نيويورك، مطبعة جامعة "أكسفورد"، ٢٠٠٤، ص. ٣٩.
(٢٥) راجع أيضًا فيليس تريبل، "نصوص الرعب: قراءات أدبية نسائية للقصص الإنجيلية"، فلادلفيا، دار نشر "فورتريس"، ١٩٨٤؛ وإيفون شيروود، "ملزم أم غير ملزم: ردود أفعال متباينة لليهودية والمسيحية والإسلام تجاه "تضحية" إبراهيم بابنه العزيز"، جريدة الأكاديمية الأمريكية للأديان، العدد ٧٢، ص.ص. ٨٢١-٨٦١.
(٢٦) يشير كولن إلى كتاب يضم لقاءات لفيتوريو ميزوري بعنوان "عبور عتبة الأمل". قامت دار نشر "مونداوري" بنشر النسخة الأصلية Varcare la soglia della speranza في ميلانو عام ١٩٩٤.
(٢٧) راجع "يوحنا بولس الثاني والحوار بين الأديان"، بايرونإل شيروين وهارولد كاسمو (محرران)، مارينول، دار نشر "أوربس بوكس"، ١٩٩٩، ص.ص. ٥٨-٦٩.
(٢٨) للاطلاع على المخطط الأول، راجع بيم فالكينبيرج، "مستقبل الدين: من الحوار بين الأديان إلى الهوية الدينية المتعددة؟"، Studies in Interreligious Dialogue، العدد ١٤، ٢٠٠٤، ص.ص. ٩٥-١٠٧، هنا صفحة ١٠٤.

(٢٩) خوليو باسيتي ساني، "لوي ماسينيو (١٨٨٣-١٩٦٢): الداعي المسيحي إلى تصالح الأديان"، تحرير وترجمة ألان هاريس كاتلر، شيكاجو، دار نشر "فرنسيسكان هيرالد"، ١٩٧٤؛ وجان ماري جودل، "لقاءات وتصادمات: الإسلام والمسيحية في التاريخ"، روما، دار نشر "بيساي"، ١٩٨٤، المجلد ١، ص. ٣٣٦.

(٣٠) ماري لويز جود، "لوي ماسينيو: بوتقة الرحمة"، نوتردام ولندن، مطبعة جامعة "نوتردام"، ١٩٩٦، ص. ٥٥.

(٣١) الإشارة هنا إلى الرسالة ٢٩ لسعيد النورسي، القسم الأول، النقطة السادسة. الترجمة الإنجليزية في رسائل بديع الزمان سعيد النورسي، ١٩٢٨-١٩٣٢، إسطنبول، دار نشر "سوزلر"، نسخة جديدة، ٢٠٠١، ص.ص. ٤٦١-٤٦٣.

(٣٢) ترجمة القرآن الكريم للأستاذ عبد الحليم، ص. ٢٥٥.

(٣٣) راجع جين دامن ماكوليف، "المناظرة والاختصام"، في "موسوعة القرآن"، المجلد ١، لايدن، دار نشر "بريل"، ٢٠٠١، ص.ص. ٥١١-٥١٤.

(٣٤) راجع "المجلس: لقاءات بين الأديان في إسلام العصور الوسطى"، تحرير حوا لازاروس يافه ومارك كوهين وساسون سوميخ وسيدني جريفيث، فيسبادن، دار نشر "هاراسوفيتس"، ١٩٩٩.

(٣٥) راجع جون بي كوب، "ما وراء الحوار: نحو تغيير متبادل للمسيحية والبوذية"، فلادلفيا، دار نشر "فورتريس"، ١٩٨٢.

(٣٦) جوناثان ساكس، "أهمية الاختلاف: طريقة تفادي صدام الحضارات"، لندن، دار نشر "كونتينوم"، ٢٠٠٢؛ وجوناثان ماجونيت، "الحديث مع الآخر: الحوار اليهودي بين الأديان مع المسيحيين والمسلمين"، لندن، دار نشر "آي بي توريس"، ٢٠٠٣.

(٣٧) ألون جوشين جوتشتاين، "إبراهيم والأديان الإبراهيمية في النقاش المعاصر بين الأديان: خواطر اليهودي المعني المتفرج"، Studies in Interreligious Dialogue، العدد ١٢، ٢٠٠٢، ص.ص. ١٦٥-١٨٣.

(٣٨) فريد إسحاق، "القرآن والتحرر والتعددية: منظور إسلامي للتضامن بين الأديان في وجه الاستبداد"، أكسفورد، دار نشر "وانوورلد"، ١٩٧٧، ص. ٢٥٨.

لوي أشتون

أستاذ مساعد زائر للدراسات الدينية في كلية ميلسابس في جاكسون بولاية مسيسيبي. وهو شمّاس معتمد في الكنيسة الميثودية الموحدة، ويساعد في عزف الموسيقى والتعليم في الكنيسة الميثودية الموحدة كروسجيتس في براندون بولاية مسيسيبي. حصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه من جامعة بوسطن. يهوى العزف على الطبول منذ ٢٨ عامًا، وهو شغوف بكل الأدوات الإيقاعية حول العالم. درس موسيقى العالم المقدسة في أوروبا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط. يعمل حاليًا على كتابة تاريخ اللاهوت المسيحي في القرن العشرين في عمل بعنوان "الشك الصادق" Faithful Uncertainty.

الدفاع عن التنوع والتسامح الديني في أمريكا اليوم: دروس مستفادة من فتح الله كولن

كُتب الكثير في السياسة الأمريكية حول "الحروب الثقافية" بين اليسار العلماني واليمين الديني. غير أن الصراعات الثقافية الحقيقية في أمريكا أعمق من ذلك بكثير. فهي غالبًا ما تنشب بين التقاليد الدينية، وتشهد وقوف "الأرثوذكس" في وجه "التقدميين"، أو "الوسطيين" في وجه "الأصوليين" بصورة متزايدة. لا يسع المراقب للخطاب السياسي في أمريكا اليوم سوى ملاحظة نبرة الاعتراض المتزايدة على مُثل التنوع والتسامح الديني.

على سبيل المثال، يجاهر العديد من المسيحيين البروتستانت المحافظين بانتقاد مصطلحات مثل "التسامح" و"التنوع" و"التعددية الثقافية"، مشيرين إلى أنها جزء من خطاب ليبرالي "صائب سياسيًا" منحاز ضد المسيحيين البروتستانت والأصوليين وتأييدهم العام للحقائق المطلقة. يرى هؤلاء المسيحيون أن هذه الحقائق في جوهرها تؤكد التفوق الثقافي واللاهوتي للمسيحية. يكمن تخوف هؤلاء في أن أي تسامح، ينادي باحترام المعتقدات الدينية للآخر ويسمح لها أن تتعايش سلميًا مع الحقائق المطلقة للمسيحية، يعد معاديًا للإنجيل ويناقض طبيعة المحبة التي سعى المسيح لنشرها بين أتباعه (ماكدويل وهوستيتلر، ١٩٩٨). بعبارة أخرى، يعتقد هؤلاء المسيحيون أن التسامح الديني يؤدي لا محالة إلى ترك الأشخاص يتبعون الأباطيل ويخاطرون بنجاتهم؛ وبالتالي فإن التصرف المُحبب هو محاولة منع هذه التعاليم الدينية البديلة من إثبات شرعيتها ومصداقيتها على الصعيد العام. أي إنهم يعتبرون التسامح الديني مرادفًا للانحلال، ومناقضًا للدين الحقيقي. تتمثل المشكلة التي تواجه الولايات المتحدة الآن، فيما يخص هذا القطاع المسيحي من الشعب، في أن مفاهيم مثل الحرية الدينية، والشمولية، والتنوع، والتسامح الديني تعد خطرًا على النظام الاجتماعي والهوية المسيحية في أمريكا أكبر من أي خطر آخر، بما في ذلك الإرهاب (روبرتسون، ٢٠٠٥).

تمثل مثل هذه الآراء تحديات تواجه علماء الدين والقادة المسيحيين الذين لا يعتنقون نفس أيديولوجيات الإقصاء والتفوق. ماذا يفعل المسيحيون، الذين يؤيدون الانفتاح والحوار ويعتبرون الإنجيل دعوة لحسن المعاملة والمساواة والرحمة واللاعنف، في ظل تزايد نبرة عدم التسامح الديني؟ لا شك أن هناك موارد لاهوتية كثيرة في التقاليد المسيحية يمكن، بل يجب، تطبيقها لمواجهة هذا التحدي، وقد وجدتُ أيضًا أن أحد مزايا الحوار بين الأديان أنه يساعدنا على اكتشاف أصوات خارج إطار تقاليدنا تواجه نفس المشكلات والأسئلة. وأحد هذه الأصوات هو صوت المرشد الروحي التركي فتح الله كولن (المولود عام ١٩٣٨)، الذي نال تقدير المجتمع الدولي واستحسانه بفضل دفاعه الجريء عن مبدأ التسامح الديني من منظور إسلامي، وانتقاده للتعصب والتزمت المتجسدين في صورة تطرف ديني. تتميز أعمال فتح الله كولن بالمزج الفريد بين التدين العميق والتعاطف الشديد والفكر الثاقب المهيمن.

لا يحتاج المرء أن يكون من مؤيدي فلسفة هيجل ليدرك أن الأفكار توجّه التاريخ، وإذا كان الأمر كذلك، فربما يكون من المفيد استكشاف الدروس والاستبصارات المستفادة من حياة كولن في كفاحه الطويل للوصول إلى حالة وسطية معتدلة من الحرية والتعددية الدينية في تركيا،

وسط أجواء يتنازعها خوف علماني من الدين تسيطر عليه الدولة من جانب، وأصولية إسلامية جهادية مستوردة من الخارج من جانب آخر. كيف يوفّق كولن بين التزامه تجاه دينه وتسامحه تجاه أديان الآخرين؟ تقدم أعماله ثلاثة مناهج على الأقل تساعدنا في الإجابة عن هذا السؤال.

المنهج الأول رؤى كولن بشأن العواقب المدمرة لتسييس الدين. وهي أمور معروفة جيدًا بين أتباعه، وتعتبر إلى حد ما ثقافة مضادة لمنظور حركات إسلامية عديدة؛ ترى أن الأهداف السياسية ضرورية لإرساء مجتمع متمسك بالتقوى والصلاح. يعتنق هذا الرأي العديد من المسيحيين البروتستانت والأصوليين في الولايات المتحدة حاليًا. يحذّر كولن من مزج السياسة الحزبية والدين، لأن تسييس الدين يؤدي في النهاية إلى الإضرار بالدين أكثر وأسرع مما يضر بالدولة (أونال وويليامز، ٢٠٠٠). يقول كولن: "الدين هو العلاقة بين البشر والخالق. يَقر إحساس الدين في أعماق القلب وفوق التلال الزمردية في العالم الداخلي. إذا حاولت تحويله إلى أشكال ظاهرة، فستقتله. تسييس الدين يضره قبل أن يضر بحياة الحكومة" (أونال وويليامز، ٢٠٠٠، ص. ٣٦). يعني كولن أن تسييس الدين يظل مسعى اختزاليًا دائمًا؛ يختزل العلاقة الغامضة بين البشر والخالق في صورة أيديولوجية. يتحدانا كولن كي نتخطى مرحلة تعريف أنفسنا وفقًا لتصنيفات واسعة مثل يميني أو يساري. لا نفع من طرح سؤال "هل أنا ليبرالي أم محافظ؟" بل إنه سؤال مناقض للروحانية في محاولته السطحية (الوضعية والمادية) تحديد شكل العلاقة الغامضة التي تربط البشر والخالق، ووضعها في إطار عضوية إحدى الأيديولوجيات. يرفض الأشخاص المتدينون حقًا الانحدار بمستواهم والوقوع في شَرك هذه التسميات.

لا ينادي كولن بأن يظل الأشخاص المتدينون أو الروحانيون خارج الساحة السياسية، أو ألا يشغلوا أنفسهم بالسياسة. لا يعد اقتراح كهذا أفضل من مذهب اطمئنان الروح والانسحاب من المسؤوليات والالتزامات التي تفرضها المواطنة والمشاركة الاجتماعية. بل إن الدرس المستفاد هنا أن خلط المشاركة والتأييد السياسي بالتعصب والولاء الحزبي يفرض على الدين أن يناقش علنًا القضايا السياسية التي تؤثر على كرامة الإنسان وصالحه، والإشراف البيئي، والعدالة الاجتماعية، والسلام، وذلك في إطار عمل ضيق جدًّا لجماعات السلطة المتنافسة التي تفرّق المجتمعات بدلاً من أن تبنيها. أما الأشخاص المتدينون بحق الذين يشاركون بمسؤولية في شؤون مدينتهم، فإنهم لا يركزون على قضية واحدة أو يوالون حزبًا واحدًا.

منهج كولن الثاني هو تحليل طبيعة الأصولية وعلاقتها بالاعتقادية، للخروج برؤى مفيدة حول نشأة التطرف الديني في أعقاب عصر الحداثة والعولمة، ومناقشة أسباب حاجتنا الملحّة لتعزيز

مبادئ التسامح، والاحترام، والتفاهم عبر الحوار بين الأديان والثقافات الآن أكثر من أي وقت مضى. مما يثير السخرية أن الإلحاد والأصولية يشتركان في نفس الجانب المهم؛ كلاهما يرفض احتمال أن يكون الدين ظاهرة من ظواهر الحياة. بعبارة أخرى، تنمو المجتمعات والمعتقدات الدينية وتتطور، ولا بد أن تعمل على نحو غير تام في ظل ظروف وجودها. المجتمعات الدينية الصادقة مستعدة للسعي بحثًا عن الحقيقة وسط كل الأمور الغامضة والمبهمة في الحياة. غير أن مثل هذا الفهم الأساسي للدين غير مُرضٍ بالنسبة لكلٍّ من الملحدين والأصوليين الذين يبحثون عن يقين مطلق جازم. يرى كولن أن منشأ الإلحاد والأصولية الدينية -بمعنى التعصب- هو الجهل، أي نقص التعليم الديني في حالة الإلحاد، ونقص التعليم العلمي في حالة التعصب (يافوز، ٢٠٠٣، ص. ٣٨). هذا الجهل أحد الأسباب الرئيسية التي توضح كيف يلعب التعليم دورًا محوريًّا في فكر كولن وحركته. يصف بيكيم أجاي (٢٠٠٣) دور التعليم الجوهري من منظور كولن قائلاً: "لطالما كان التعليم وسيلة لضمان نجاة الشخص ونجاة الآخرين" (ص. ٦٨). ينظر كولن إلى الأصولية باعتبارها "التزامًا متعصبًا ومتزمتًا بمعتقد ما" (أونال وويليامز، ٢٠٠٠، ص. ٦٥). النقطة الرئيسية هنا أن العقيدة[١] ذاتها -المذهب الديني بالمفهوم المحايد- ليست المشكلة وإنما الاعتقادية الدوجماتية، وبعبارة أخرى التعصب بشأن العقيدة.

وجد التطرف المسيحي في أمريكا على مدار نصف القرن الأخير بيئة خصبة ينمو فيها، نشرت بذورَها الأصوليةُ (سواء الكنسية أو الإنجيلية) وروتها الوطنية الدينية. الأصولية في أساسها نزعة طفيلية؛ إنها صورة مسطّحة مشوهة للرؤية الدينية الأصلية بعد اغتصابها بغرض التلاعب السياسي والقمع. إذا تحدثنا من منظور لاهوتي ندرك بالطبع أن الآراء الدينية تتنوع وتتباين، من ليبرالية إلى وسطية إلى محافظة. غير أن الأصولية تتعمد الانسحاب تمامًا من هذا النسق برفضها للغموض وإمكانية إعادة النظر. لا يسمح إطار عمل الأصولية للشخص أن ينطلق في رحلة روحية، معتمدًا على البصيرة والنمو، ليصل إلى نقطة محددة. بل إن الشخص المؤمن يتحول إلى الهداية، ثم ينسحب من الانخراط في الواقع، ويختبئ خلف حصن من اليقين الجازم. يشير كولن إلى معنى مماثل عندما يُعرف التعصب الديني بأنه "الإصرار على الباطل والتشبث الأعمى به" (أونال وويليامز، ٢٠٠٠، ص. ٨٧). عندما ترفع الأصولية من شأن تعريفات مشروطة سياسيًّا للمجتمع وتمنحها أهمية غير مشروطة، فإنها لا تعطّل الحياة فحسب، بل تقع في الشِرك أيضًا. إن النزعة الأصولية للتشدد والتعصب المسلّح تدفع أتباعها آخر الآمر لاستخدام القوة والعنف بدعوى حماية الإيمان. في حين أن العنف والإرهاب هما

النقيض التام لدعوة التقاليد الإبراهيمية المتجسدة في الجوهر الأخلاقي لفهمها الجماعي لمراد الله؛ أي نشر الحب وحسن المعاملة.

وأخيرًا منهج كولن الثالث وربما الأهم: اعتقاده بوجوب أن يكون التسامح تجاه الآخر جانبًا من جوانب التدين. يوضح كولن أن من علامات التدين الحقيقي -العلاقة التي تربط البشر والخالق- تقديم النفع لكل البشر وليس التمييز واستخدام العنف. يتحدث كولن هنا بأسلوب قادر على تحريك المشاعر عندما يربط الأبعاد الدينية للمحبة بالالتزامات الأخلاقية المصاحبة للتسامح ومراعاة الآخر. فهو يرى أن الحوار والتسامح والثقة يعزز كلٌ منهم الآخر؛ التسامح هو قبول الاختلافات التي تنشأ عن الحوار بغرض تحقيق هدف التعاون الأعظم. التسامح مأخوذ من فكرة البِر، أو المحبة، وبالتالي فإنه فرض من الله (أجاي، ٢٠٠٣، ص. ٦٤) عندما يتحدث كولن من منظور المتصوف، نجده يصف هذه المحبة مرارًا وتكرارًا بأنها أعظم مواطن قوة البشر التي تساعدهم في التعامل مع الله وأحدهم مع الآخر. وهو يعلّمنا من خلال سعة صدره تجاه الآخرين كيف يكون التسامح تعبيرًا ضروريًّا عن هذه القوة والعلاقة (كولن، ٢٠٠٤ب، ص. ٤).

المحبة من منظور كولن تصرف ينطوي على التضحية بالذات، مدفوع بطاعة الله والرغبة في نفع الآخرين. يرى كولن التدين نوعًا من أنواع التهذيب الذاتي الذي يغرس التسامح في النفس من أجل رفعة ورقي المجتمع. يربط كولن بين التسامح والمحبة لأن كليهما يشترط وجود مشاعر صادقة تجاه الآخر. وكما تعكس المحبة مشاعر تعاطف تجاه الآخر، تؤكد كتابات كولن الأخيرة أن التسامح هو تقدير متفهّم لاختلاف الآخر وتفرده (يافوز، ٢٠٠٣، ص. ٤٥). وبالتالي فإن كولن يعتبر التسامح أمرًا أخلاقيًّا من الله ودعوة إلهية نحو مستوى عميق من التدين. يصف هاكان يافوز (٢٠٠٣) تفكير كولن بهذه الطريقة: "يتمثل هدف الدين والطقوس الدينية في غرس الفضائل الإسلامية؛ أي تعلّم الحياة في معية الله" (يافوز، ٢٥). إذا لم ينبع التسامح من المحبة، فلن نكون مخلوقات ذات أخلاق وفضيلة. كتب كولن (٢٠٠٤ج) "كن متسامحًا جدًّا حتى يتسع قلبك كالمحيط، ويلهمك الإيمان ومحبة الآخرين. قدّم يد المساعدة للمحتاجين، وفكّر في مصلحة الجميع" (ص. ٣٩).

نلاحظ في فكر كولن أن المحبة هي المفهوم الديني الأسمى والتصرف الديني الأعظم؛ "الحب أهم عنصر في كل الكائنات الحية، وأكثر ضوء ساطع، وأعظم قوة، إنه قادر على مواجهة كل شيء آخر والتغلب عليه" (كولن، ٢٠٠٤ب، ص. ١). وبذلك يكون التدين الحقيقي

هو تحولنا من مجرد بشر إلى بشر يتحلّون بالإنسانية. وهكذا يعلمنا كولن أن الأشخاص المتدينين منفتحون للفيض الإلهي. وعندما يسمحون لأنفسهم أن يكونوا أدوات لرحمة الله، يكتشفون حقيقتهم في حقيقة الله.

ترتبط رؤية كولن للتدين والتسامح بالفهم الإسلامي لأهمية التعليم باعتباره أحد ضرورات الالتزام الديني. وكما نرى، تؤكد أعمال كولن أن أهداف الحوار بين الأديان مضاعفة في حالة التعليم والقضاء على الجهل. يساعدنا الحوار بين الأديان في التعرف على المعتقدات الدينية والهوية الروحية للآخر، وفي الوقت ذاته اكتشاف المزيد عن معتقداتنا الدينية وهويتنا الروحية.

كثيرًا ما نصد دعوات الله ونغرق في التفكير في أنفسنا. الدرس الذي تعلمته من قراءة أعمال كولن وأعدت اكتشافه في عقيدتي الخاصة أن الهدف من سعينا الديني، سواء باعتبارنا أفرادًا أو مجتمعات متدينة، هو اكتشاف لب الحقيقة وتعلم الحياة في معية الخالق.

الهوامش

(١) العقيدة من منظور ديني محايد هي ببساطة "المذهب الديني".

المراجع

- بيكيم أجاي (٢٠٠٣)، التعليم بوصفه فضيلة إسلامية في حركة كولن، في إم هاكان يافوز وجون لويس إسبوزيتو (محرران)، Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement (ص.ص. ٤٨-٦٨)، سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز.
- جون كلاجيت دانفورث (٣٠ مارس ٢٠٠٥أ)، "باسم السياسة"، صحيفة "نيويورك تايمز"، صفحة مقال الرأي.
- (٢٢ يونيو ٢٠٠٥ب)، "جنود مسيحيون معتدلون من الآن فصاعدًا"، صحيفة "نيويورك تايمز"، صفحة مقال الرأي.
- فرانك لامبرت (٢٠٠٣)، The Founding Fathers and the Place of Religion in America، برينستون: مطبعة جامعة برينستون.
- فتح الله كولن (٢٠٠٤أ)، Key Concepts in the Practice of Sufism: Emerald Hills of the Heart، راذرفيلد: دار نشر "ذي لايت انك".
- (٢٠٠٤ب)، Toward a Global Civilization of Love and Tolerance، تقديم بقلم توماس مايكل، راذرفيلد: دار نشر "ذي لايت انك".
- (٢٠٠٤ج)، Love and the Essence of Being Human، إسطنبول: مطبوعات مؤسسة الصحافيين والكتّاب.
- جون ماكدويل وبيكر هوستيتلر (١٩٩٨)، The New Tolerance: How a Cultural Movement Threatens to Destroy You, Your Faith, and Your Children، كارول ستريم: دار نشر "تنديل هاوس".
- بات روبرتسون (٢٠٠٥)، "بات روبرتسون يكشف الحقيقة في مقابلة ستيفانوبولوس"، مقتبس من نصوص برنامج Club 700 المعروض بتاريخ ١٩ مايو ٢٠٠٥. متاح على الموقع الرسمي لبات روبرتسون: http://www.patrobertson.com/pressreleases/steph.asp
- علي أونال وألفونس ويليامز (٢٠٠٠)، Advocate of Dialogue: Fethullah Gülen، فيرفاكس: دار نشر "ذي فاونتن".
- جيم واليس (٢٠٠٥)، God's Politics: Why the Right Gets It Wrong and the Left Doesn't Get It, A New Vision for Faith and Politics in America، نيويورك: دار نشر "هاربر كولينز".
- إم هاكان يافوز (٢٠٠٣)، "حركة كولن: البيوريتانيون الأتراك"، في إم هاكان يافوز وجون لويس إسبوزيتو (محرران)، Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement (ص.ص. ١٩-٤٧)، سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز.

ناصر أحمد سنه

أستاذ ورئيس قسم الجراحة والتخدير والأشعة، كلية الطب البيطري ـ جامعة القاهرة. عضو عدد من الجمعيات العلمية المصرية، وأشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. وله عشرات البحوث والدارسات العلمية، وأكثر من خمسمائة مقال منشور في عدد من المجلات الثقافية الورقية والمواقع الالكترونية.

كولن" والحوار مع الآخر"

م من بعض مظاهر الحداثة والعولمةِ دفُعها أفرادا ومجتمعاتٍ لارتياد طرقٍ لعلها أقرب للانغلاق و"التمترس بالهوية" منها إلى الانفتاح والحوار مع (الآخر)، كذلك عبر عقود متطاولة وهو ما يسمى بـ"التدافع الحضاري" تراكمت فيها أفكار، وتكرست مواقف، وتشابكت مصالح ضيقة، وظهرت أحداثٌ سمتُها الاستعلاء والعنصرية، وسلوكيات تنضحُ بالإقصاء والتصادمية، لذا فقد باتت الحاجة ماسة لتفعيل كل ما من شأنه البحث عن "الجوهر"، والمشتركِ الإنساني، والتعايشِ البنّاء، وتثمينِ الرؤى التي تؤدي إلى الابتعاد عن "الأحكام النمطية"، وإثراء المثاقفة المتبادلة، وإرساء جسور التعارف والتعايش، وتحقيق كل صور "الأمن" المنشود للجميع، فحينما يلتقي ويتحاور الشرق والغرب -ولا بد لهما أن يلتقيا ويتحاورا- ستسود "المعرفة المُنصفة"، والاحترام والتقدير المتبادل لدور كل منهما في المسيرة الحضارية للبشرية، كما سيعلو الحوار الفعّال، على الخنجر القتّال، وسيحل الوئام

لا الصدام، والوفاق لا الشقاق، ولقد أدرك عقلاء العالم -ومنهم الأستاذ "فتح الله كولن"- قيم "التحاور، والتعارف، والتعايش"، وحثوا على ممارسة تلكم القيم المرتكزة على احترام التنوع البشري والاختلاف الثقافي الخلاق، فما أسس وملامح فلسفة "كولن" في الحوار مع (الآخر)؟ وما موقفه من صراع اللسان، وصراع السِنان؟، وهل الحوار مع (الآخر) يعني "ذوبانا" فيه، و"تمييعًا" للثوابت العقدية والإيمانية والقيمية كما قد يدعي البعض؟

"الحوار" لغةً هو: جذر "حَوَر"، وهم "يتحاورون" أي: يراجعون الكلام. أما اصطلاحًا فهو: "أحد النشاطات العقلية والفكرية بين طرفين أو أكثر (والأصل في الحوار هو الاختلاف)، وفيه تُطرح أسئلة تحتاج لأجوبة. ومن ثم يقدم المتحاورون براهينَ ودلائل وشواهد وأفكار للوصول إلى اتفاق/توافق حول قضية ما (كدعوة إلى فضيلة، أو تحذير من رذيلة، أو تقويم سلوك، أو تصويب منهاج، أو حل مشكلة). كما يَكشِف في الحوار كلُّ طرف -قدر استطاعته- ما خفي عن الطرف (الآخر) وهو مطلب رئيس في الحياة على مستوى الذات/النفس، والمجتمعات، والبشرية جمعاء.

وقد وردت مشتقات مادة "حَوَر" في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم وهي: ﴿**وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾ (الكهف:٣٤)، و﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**﴾ (الكهف: ٣٧)، و﴿**قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ (المجادلة:١). كما ورد بمعنى "المُجادلة بالحُسنى": ﴿... **وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**..﴾ (النحل:١٢٥). ولفن الحوار آليات وآداب وأخلاقيات وضوابط وأوقات وغايات تُطلب في مظانها.

أما مفهوم (الآخر): فمتعدد المعاني، ويتنوع باختلاف وجهات النظر والرؤى. وثمة اتفاق على أن (الآخر)، مجاوز لمعنى (الأنا): "كل ما ليس أنا" سواء كان ذاتًا فردية (هو)، أو ذاتًا جماعية ينتسب إليها الفرد (نحن)، أو ذاتًا جماعية مقابلة للجماعة (هم)، وقد تكون ذاتًا جماعية لصديق أو عدو. ويمر تشكيل صورة (الآخر) في أبعادها الذاتية والموضوعية، وفي أشكالها ومضامينها، عبر (الذات) المكونة لهذه الصورة بكل ما تحوزه هذه (الذات) من مُوَجّهات أيديولوجية وخبرات مباشرة.. قديمة ومعاصرة. ومن المعلوم أن (الآخر) باختياراته وأفعاله وردود أفعاله يسهم كثيرا في تأسيس مرتكزات صورته تلك.

ويبقى (الآخر) في رؤية الفكر الإسلامي هو: الأخُ المشترك في المعتقد أو المُجتمع في الإنسانية. ويتجلى هذا بسُمُوٍّ في تقديم الإسلام "الكرامةَ الإنسانية" بوصفها أول مشترك إنساني،

لأن البشر جميعًا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم، كرمهم الله ﷻ بنفخة من روحه في أبيهم آدم عليه السلام، ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ (الإسراء:٧٠)، فكانت "الكرامة الإنسانية" سابقة على الكرامة الإيمانية.

الحوار منهج قرآني ونبوي أصيل

لا تكاد تخلو سورة من سوره الكريمات من "حوار". ففي فواتح سورة "البقرة" إشارات لحوار مع "المنافقين": ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة:١١-١٣). ثم حوار الله -سبحانه- مع الملائكة وإجابته تعالى عن أهم سؤال وجودي حول علة الخليقة، ثم الحوار مع آدم، وحوار سيدنا موسى عليه السلام، مع قومه ليذبحوا بقرة إلخ. كما نرى محاورة كل رسول ونبيٍّ لقومه وعشيرته مبثوثة عبر سور القرآن الكريم حيث كان من أصول دعوة الرسل تقرير الحجة والحوار بالحسنى.

وعبر الدعوة النبوية الشريفة (٢٣ عامًا) تعددت طرق ومواقف الحوار بين الرسول محمد ﷺ وبين المدعوين من جهة، وبينه وبين أصحابه والمؤمنين من جهة أخرى. ومنذ بداية صدعه بالدعوة كانت بواكير (الحوار، والتفاوض) معه عبر صناديد قريش أمثال "عتبة بن ربيعة"، و"الوليد بن المغيرة"، و"العاص بن وائل" إلخ. وكان الرسول الكريم ﷺ يربي أصحابه بالحوار المتصل، كما درج الصحابة الكرام على محاورته ﷺ، من خلال الأسئلة والاستفسار عن كثير من الأمور، ولو تأملنا مضامين الفكر الإسلامي عبر العصور لوجدنا في المرجعية الإسلامية ما ينبه ويؤكد على هذا النهج، فالحوار سنة إلهية وفطرة إنسانية، وإن عدمَ استنفاد الوسع في حل المشكلات بالحوار واللجوءَ إلى القوة والتعصب، يضع البشرية جمعاء في خطر.

"كولن" ومنطلقات الحوار مع الآخر

لعل الأستاذ "كولن"، وهو المنتسب لعائلة علم ودِّين، والدارس المتأمل في كتاب الله تعالى، وسيرة رسوله ﷺ، ينطلق في إيمانه بالتعددية الثقافية واللغوية والعرقية، باعتبارها "آية" تستحق التدبر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:٢٢)، وقوله ﷻ: ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات:١٣).

إنه لأصل بشري واحد، مُنتشر شعوبًا وقبائل، ومُختلف في الأجناس والألوان واللغات. فلا

مدعاة للتفرق والتخاصم والتناحر والذهاب بددًا. بل هو للتعارف والتعاون وفق معيار أساس: التقوى والعمل الصالح، وهما أعمال كسبية (ليست وراثية/عرقية) يتسابق فيهما الناس جميعًا؛ مرضاة لربهم، وتصالحًا على العرف الحسن، والمعرفة الرشيدة دونما اعتداء أو تعدٍ أو إكراه. وفي حِجة الوداع قال الرسول ﷺ: "**يأيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟** قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، ثم قال **أي يوم هذا؟** قالوا: يوم حرام، ثم قال **أي شهر هذا؟** قالوا: شهر حرام، قال ثم قال: **أي بلد هذا؟** قالوا بلد حرام، قال **فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم** -قال ولا أدري قال أو أعراضكم أم لا- **كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. أبلغت؟** قالوا: بلغ رسول الله ﷺ قال **ليبلغ الشاهد الغائب**"[1].

وإنه لمن المستحيلات جمع الناس كلهم فعلًا وفكرًا، وقولاً وسلوكًا، فالتنوع البشري هو مشيئة الله تعالى، وسُنة في كونه: "**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...**" (هود: ١١٨-١١٩). وقد خلقهم الله تعالى: "**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا...**" (البقرة: ١٤٨)، وإذا ما تنوعت الوجهات، فينبغي التحاور على كلمة سواء، وامتثالاً لقوله تعالى: (**وقُولوا للنَّاسِ حُسْنًا**)، أي للناس جميعًا، بقطع النظر عن عقائدهم، وأعراقهم، وثقافاتهم.

وهذا قول حسن ينبع من فكر يستوعب هذه السنة الكونية، ويُحسن ثقافة تدبير الاختلاف؛ ليستفيد مما يتيحه التنوع المعطاء في بناء الحضارة الإنسانية المشتركة. وتخفيفًا من حدة الصراعات والخلافات التي تضعّف الذات الإنسانية وتصرفها عما ينبغي أن تعمل له. فمن المعلوم إن لدى الإنسانية مشتركاتٍ كثيرةً أدَّى تجاهلها إلى كثير من الحروب والدمار وإلى ابتعاد البشرية عن القيم التي أرساها الأنبياء؛ قيم الخير والمحبة والتراحم والسلام.

الحوار مع النفس، وتسامح كولن

(أيتها النفس! إن كنتِ جريئةً وجسورةً فعلاً، فابصقي في وجهِ ما في داخلك من العداء، واطردي الخذلان من بابك، ودُوسي على رأس الظلم، واقطعي أنفاس الوقاحة مُنطلقةً من الشعور بأنه تعالى حاضر في كل مكان، واكبحي جماح نوازع الخطايا عن طريق الإيمان بالانتقام الإلهي، وحاولي ألا تسيري صوب تلبية غرائز النفس ونزواتها، بل سيري في طريق مرضاة الله تعالى، واستشعري دائمًا بأن الله رقيب عليك، واهتزي كما تهتز الأشجار، لتَنْفُضِي عنك كلَّ ما يُفسِد طبيعتكِ ويشوِّه منظرك، وما هو غريب عن روحك وعبءٌ على قلبكِ من أنواع الذنوب والخطايا والمعاصي، حتى تتناثر وتذهب عنكِ أبعدَ ما تكون)[2].

وفي ترجمة عملية للحوار المبدئي مع النفس والوعي بالذات قبل الحوار مع (الآخر).. بدأ "كولن" عمله الدعوي متنقلا في بلدة "إزمير"، حيث طاف أنحاء غربي الأناضول، ونظّم مخيمات للشباب (عام ١٩٧٠) لتربية نفوسهم، وإرساء قواعد التسامح بينهم. ثم اعتقل (عام ١٩٧١) لستة أشهر قضاها في "الحوار مع النفس، والعودة إلى الذات الإسلامية الإيمانية"، وبعد إطلاق سراحه ظل بضواحي "إزمير" حتى (عام ١٩٨٠)، فكان يرتب المحاضرات ويعقد الندوات والمجالس الخاصة. وكان لُبُّ دعوته: العودة إلى الذات والجذور، وربط ديناميكية الماضي الروحية والمعنوية والأخلاقية بالنسيج الإنساني والثقافي، دون إهمال (الآخر) أو إبعاده، فلا يفهم ذلك على أنه بقاء الإنسان محصورًا داخل نموذجه الخاص، أو منغلقًا على نفسه تجاه العالم الخارجي. فنحن اليوم بحاجة ماسة لتفعيل "التربية الحوارية"، بدءًا بمؤسسة التربية الأولى (الأسرة)، ومؤسسات المجتمع وصولا للحوار الإنساني العالمي. ففي مقاله المعنون بـ"حوار مع النفس"[٣] يغوص في أغوار النفس البشرية، داعيًا النفس البشرية أن تكون في كل حالاتها منشغلة بمشاعر الإحسان وترجمانًا للخير والجمال، ويحثها على أن تزيد من سرعتها في سيرها على الخط الإنساني، مبينًا أن الحاجة إلى مثل هذا الجهد في عالمنا الذي تآكلت فيه القيم الإنسانية توازي الحاجة إلى الماء والهواء.

واشتهر "كولن" بكلمة تركية، انتشرت في عظاته وتعليمه، وهي:"hosgoru" وترجمت بمعني "التسامح". وهو يحب استعمالها كمعنى مرادف لمصطلح "الحوار". كما قد تفهم أيضًا بمعني: "احترام الإنسان أيًّا كان موقعه"، و"التعددية القائمة على المبادئ". وهي ليست "تعددية نسبية" حيث لكل رأي حق المساواة في الصحة. لكنها تعددية مستندة إلى فهم للإسلام بأنه وفر أساسا يمكن من خلاله تحويل الاختلافات إلى تعاون مثمر عبر الحوار، حيث يستشهد "كولن" دومًا بمقولة للأستاذ "سعيد النورسي" مفادها: "لا يمكن الوصول بنجاح إلى الأشخاص المتحضرين إلا عبر الإقناع". ومعرفة المسلم للحدود التي يجب أن يقف عليها تتيح له إمكانية قبول الاختلافات الموجودة دون حاجة للحكم عليها، وبالتأكيد دون عنف.

فالخلافات مدعاة لوجود أجواء من الحوار. ومن ثم يساعد الحوار الناس على تعلم العيش المشترك بسلام وتحقيق عدالة أكبر، وبالنهاية أنت تحتاج لرؤية (الآخر) بعين الرأفة والرحمة الصمدانية المبثوثة في الكون كله وتشمل كل المخلوقات. ومنذ عام ١٩٨٦، ولنحو عقد قادم، وبعد إلغاء التهم الموجهة، سار " كولن" بنهج أساس وفكر مُلهم محوره: "النموذج النبوي في تعزيز مفهوم التسامح" وأن يكون المسلمون قادة في ممارسة التسامح مما يتيح لهم بناء أمرين

هامين: "رأس المال الاجتماعي المترابط"، والانفتاح على الآخرين عبر "رأس المال الاجتماعي التجسيري"[٤]. وكثيرًا ما أكد "كولن" على ضرورة تحجيم "الفكر المتطرف" الذي يشوه الإسلام ويقدم الذرائع للكراهية والبغضاء؛ لأن العلاقة بين متطرفي الإرهاب ومروجي الكراهية علاقة تلازمية، فكل منهما يمد الآخر، ويؤثر كلاهما على الآخر تأثيرًا طرديًّا وعكسيًّا.

"كولن".. حوار إنساني بالأفعال

تنبع فلسفة الحوار مع (الآخر) عند "فتح الله كولن" -باعتباره أحد الشخصيات الأكثر تأثيرًا في عصرنا- من استشعاره بهموم الإنسانية ورغبته في رفع المظالم عن البشرية، وقد أدرك "كُولَنْ" -مبكرا في مشواره الدعوي- أن المجتمع الإسلامي يعاني من ثلاثة أمراض كبرى: الجهل، والفقر، والفرقة... فنذر نفسه للدعوة إلى العلم لإزالة الجهل، ونشر روح التكافل والتضامنِ الاجتماعي لإزالة الفقر والمرض، مع التواصل والحوار البنّاء لعلاج الفرقة والخلافات المتجذرة، وتأسيسِ ثقافة التعايش على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية.

ومن ثم انبثقت حركة "الخدمة" (نشأت في تركيا ١٩٦٦م) كحركة مدنية تربوية مجتمعية لتقدم أنشطتها الإنسانية في مجال التربية والتعليم، وانتشرت في ١٧٠ دولة، وشملت مؤسسات تعليمية تزيد عن ٣٠٠٠ مدرسة دولية متميزة، و ٣٠ جامعة، ومئاتٍ المدن الجامعية، وبيوت الطلبة. فعبر نظام تعليمي سليم يلبّي احتياجات البشر سيفهم الناس أهمية التنوع والتعايش المشترك؛ وفهم الأصول المشتركة للبشر، والاعتراف بالشرائع الأخرى وبالكرامة الإنسانية، واعتبار الاختلافات أمرًا إيجابيًّا، ومن ثم القيام بما هو طيب. كما ضمت "الخدمةُ" مؤسّسات نشر ثقافية ووسائل إعلامية بما فيها (صحف - ومجلات - ومحطات إذاعية - وقنوات فضائية (بعدة لغات)، ومواقع إلكترونية (٢٢ لغة)، ومؤسسات صحّية، وجمعيات ومنتديات لرجال الأعمال والتجار، كما شملت الأنشطة المجتمعيّةُ أعمالَ الإغاثة الإنسانية للمنكوبين وضحايا الحروب، فكانت مؤسسة "هل من مغيث؟" تمد يد العون للمنكوبين، ووصلت أعمالها الخيرية إلى جنوب إفريقيا وشرق آسيا. وإنك واجد عشرات الناس من مختلف الألوان والأطياف والأحزاب والجماعات، تجتمع في طاولة واحدة حول مشروع الخدمة.

وهذا الفكر "العملي" يعيد التجلي إلى "رحمانية" رسالة معلم الناس الخير ﷺ: "**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**"(الأنبياء:١٠٧). فالرحمة شاملة للعالمين، وهذا ما يتجلى في البعد الإنساني العالمي الذي تحمله -بالأفعال- حركةُ "الخدمة" وتقدمه للناس كافة[٥]. فمن أقوال الأستاذ "كولن": (واليوم تقع المهمة على عاتقنا، فعلينا توفير مساحة في قلوبنا لآلاف المقاعد كي يأتي

الناس ويجلسوا عليها. يجب أن يكون لدينا متسعٌ للجميع في قلوبنا... دع العالم يسمع أن قلوبنا مفتوحة للذين يحبوننا وللذين يهاجموننا؛ لأننا نعتقد أن كل إنسان خلقه الله في أحسن تقويم)[٦].

الانفتاح على (الآخر).. أفق جديد للدعوة

لم يكن "كولن" ضد الاحتكاك بـ (الآخر) بل كان ضد الأخطاء الواقعة عند النظر إليه وتقييمه، مع ضرورة استيعاب الواقع وفهمه، وأن يكون العقل والمنطق هما الحكم في كل الأمور. ويرى أن الحضارات التي تحركت وفقًا لديناميكيتها وحافظت على عناصرها؛ هي التي استمرت وبقيت، وأن الحضارة الغربية الحديثة واحدة منها. وفي كل حضارة عناصر توفر لها "التواؤم التعايشي" مع الحضارات الأخرى، ومن الأهمية بمكان تحديد هذه العناصر والقدرة على تلقيح بنيتها الذاتية وتطعيمها بها. فالانغلاق على الذات والرفض الكامل لـ(الآخر) لا يُعد تصرفًا إيجابيًا. وبذلك يقدم "كولن" مقاربة مميزة في القضية المتداخلة والشائكة: العودة إلى الذات، والحوار مع (الآخر).

ويحث "كولن" "جيله الذهبي" على التعلم تعليمًا عاليًا، ودراسة اللغات والعلوم الطبيعية والاجتماعية[٧]، والعمل والتفكير بشكل عالمي، والتواصل والترحال عبر العالم والانخراط بفاعلية في الحوار بين الثقافات في كل مكان يتواجدون فيه. ولا يعني هذا قبولاً بالتغريب، بل تصويبًا للحداثة الغربية المادية المفتقرة للأبعاد الإنسانية الأخرى خاصة البعد الروحي الإيماني. فالإيمان والعلم يسيران يدًا بيد في تكامل وتناغم. فأفضل معرفة هي تلك التي تجعل التلاميذ يربطون الأحداث العالمية بخبراتهم الداخلية. مع رفض التقليد الأعمى والفشل في استخدام العقول لاكتشاف وتحليل ظواهر الكون. ويرى أن واجب الانفتاح على الجميع.. قد أصبح واجبًا الآن، لاسيما بعد النظام العالمي الذي وضع المسلمين عنوة في خانة "الأعداء الذين يجب محاربتهم" وتنامي ظاهرة "الإسلاموفوبيا".

ولقد بدأ "كولن" من تركيا، حيث فتح أبواب الحوار والتسامح على مصراعيها لتفويت أغراض المتآمرين على تمزيق المجتمع التركي بالخلافات العنصرية والقومية والمذهبية والفكرية، ثم نشر الدعوة إلى الحوار والتسامح إلى جميع الأماكن خارج تركيا؛ ليطرح دعوة عريضة للإيمان في مواجهة الكفر، والحق في مواجهة الباطل، والعلم في مواجهة الجهل. ومعتمدًا على نور الإيمان وحقائقه في مواجهة السراب الخادع الذي يقود حضارة القوة الغشوم. كما عمل على بث فكر التسامح وقبول (الآخر)، وكان كثيرًا ما يردد على مسامع من حوله:

"افتح صدرك للجميع.. افتحه بأكبر ما تستطيع.. ليكن صدرك كالبحر.. لتمتلئ بالإيمان وبمحبة الإنسان.. صفق للأخيار بسبب خيرهم وفضلهم، كن ذا مروءة تجاه المؤمنين.. كن ليّنًا تجاه المنكرين إلى الدرجة التي تذيب معها أحقادهم ونفورهم... لا تنس أنك من أتباع رسول مرشد عظيم على علاقة وطيدة مع السماء لصالح البشرية جمعاء".

القابلية للحوار

وضعت الباحثة "جيل كارول" – في دراسة منبثقة عن كتابها :(A Dialogue of Civilizations)، أو: "محاورات حضارية.. حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني" – أفكارَ الأستاذ "كولن" داخل سياق أكثر رحابة للحركة الإنسانية. وسعت لإقامة "حوارٍ نصيٍّ" بين مختارات من مقالات وخطابات الأستاذ "كولن"، وبين نصوص مفكرين وفلاسفةٍ ينتمون إلى الحركة الإنسانية، مثل: "كونفوشيوس"، و"أفلاطون"، و"إيمانويل كانط"، و"جون ستيوارت ميل"، و"جان بول سارتر". حيث اقتنعت الكاتبة أن أعمال "كولن" وهؤلاء المفكرين تدور حول قضايا مركزية وجودية. فهم منشغلون بالأسئلة الرئيسة التي تتناول الحياة البشرية والدولة والأخلاق[٨].

ومما أثار اهتمام الباحثة "فاعلية الحوار" بين أشخاص ذوي رؤى بالغة التباين، و"ضرورته" في عالم اليوم الذي دفعت مظاهرُ العولمةِ ووسائلُ الاتصالات والتقنية أفرادَه وجماعاتِه لارتياد طرقٍ لعلها للعزلة والانغلاق (على الذات) أقرب مما هي للانطلاق والانفتاح على (الآخر). والعزلة أو تحجيم الاختلاف لن يُجدي نفعًا، وقد يسبب مآلات تدميرية للبشرية. لكن ما ينبغي فعلُه هو تنمية "قابليتنا للحوار" (بدلاً من القابلية للاستعمار التي صاغها المفكر الجزائري "مالك بن نبي") وعقْدُ أواصرَ بيننا وبين الأشخاص المختلفين، وتحقيق التوافق/وليس التطابق بين بعضنا البعض.

وفي هذا الصدد يُشار إلى أنه لأول مرة في تاريخ الكنيسة الغربية، ناقش المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) على مستوى مذهبي وعقائدي، مشكلةَ العلاقة بين الكنيسة والديانات غير المسيحية، حيث صدر عن الكنيسة تصريحٌ خاصٌّ حول "علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية". وقد أولى هذا المجمعُ اهتمامًا خاصًا بالإسلام، فلأول مرة منذ أربعة عشر قرنًا من وجود المسيحية والإسلام، يتحدث مجمع مسكوني كاثوليكي بصورة إيجابية عن الإسلام معترفًا بوضعه الديني. ثم جرت بعد ذلك تطورات عديدة على مستوى العلاقة بين الإسلام والمسيحية، كان من أبرزها الخطاب الذي ألقاه البابا "بولس السادس" في كل من عمان والقدس

في (يناير ١٩٦٤)؛ إذ دعا الكنيسة لاحترام أتباع الأديان التوحيدية الذين يعبدون إلهًا واحدًا حقيقيًّا.

"كولن" يؤسس منتدى للحوار

أثارت الدراسة الشهيرة للبروفيسور الأمريكي بجامعة هارفارد "صامويل فيليبس هنتنجتون" (١٩٢٧-٢٠٠٨) (Samuel Phillips Huntington) المنشورة بمجلة "فورين آفيرز" (١٩٩٣) -وتحولت إلى كتاب- "صدام/صراع الحضارات" (The Clash of Civilizations) أو "صدام الحضارات، وإعادة تشكيل النظام العالمي"، ردودَ أفعال عالمية، فقد أطّر المؤلف لحدوث صراعات ما بعد الحرب الباردة، ليس بين الدول القومية واختلافاتها، بل على أساس التباينات الثقافية والحضارية. وجاءت أطروحته ردًّا على مقولات تلميذه "فرانسيس فوكوياما": "نهاية التاريخ والإنسان الأخير". لكن، في المقابل، سعى "كولن" (في تسعينيات القرن الماضي) لإرساء دعائم الحوار وقبول (الآخر)، وبادر بتوجيه دعوته إلى النخب الدينية والثقافية والقومية في تركيا. مما أزال "جدار الصمت القلق"، وظهرت "حالة حوارية" واسعة استندت إلى الاحترام المتبادل وحرية التعبير عن النفس. وسرعان ما تجسدت في مؤسسة "وقف الصحفيين والكتاب" (١٩٩٤)، وبرعايتها تشكل المنبر الثقافي "منتدى أبنت". وجمع المنتدى مختلف النخب لتشكيل أرضية مشتركة للعيش والتفاهم في جو من الاحترام المتبادل، ووضع مسائل كالديمقراطية وحرية الفكر، ونماذج الدولة الوطنية الحديثة، والتعددية السياسية والثقافية على طاولة البحث والتحاور. وبدأ المنتدى كتجربة للمواجهة مع (الآخر)، ثم تحول تدريجيًا إلى قاعدة مشتركة للحوار والتفاهم والقبول. مما أعطى شعورًا بالثقة في إمكان توصل البشر -على اختلاف أفكارهم وبيئاتهم- إلى قواسم مشتركة يمكن الاتفاق عليها. وتوسع "المنتدى" من المحلية إلى العالمية لينشغل بالحوار بين الثقافات والحضارات.

ففي (عام ١٩٩٧) التقى "كولن" بكاردينال نيويورك "جون أوكونور" (John O'connor) (من الأسماء الهامة في العالم الكاثوليكي)، وأعرب "أوكونور" عن متابعته الحثيثة لمساعي "كولن" من أجل التقارب والتسامح بين الحضارات. ونتج عن هذا اللقاء دعوة الأستاذ "كولن" إلى زيارة بابا الفاتيكان التي جرت (عام ١٩٩٨). وبالتأكيد لم يكن "كولن" ممثلاً رسميًا لأي جهة بل كان داعيًا مسلمًا، ومفكرًا إنسانيًّا مستقلاً عن أي جهة سياسية أو أيديولوجيّة. وعلى مأدبة إفطار رمضانية.. التقى واستمر التواصل بين "كولن" (في يناير ١٩٩٨) واثنين من رجال الأعمال اليهود، وهما: "عزير غاري"، و"إسحاق ألاتون" وكان كلاهما شريكين في مؤسسة أعمال تركية

تهتم بمشاريع اقتصادية وتجارية وعقارية. ثم التقى "كولن" في لقاء عام كبير مع كبير حاخامات الطائفة السفاردية في إسرائيل "إلياهو باكشي دورون" خلال أول زيارة رسمية يقوم بها كبير حاخامات إسرائيل إلى تركيا.

وكانت منطلقات "كولن" في هذا الحوار قائمة على قراءة لحياة النبي ﷺ وتعامله مع يهود المدينة، وحادثة وقوفه لجنازة يهودي إلخ[٩]. كذلك يحرم الإسلام امتهان الكرامة الإنسانيّة، ومن فعل ذلك عوقب على فعله، ومن ذلك قصّة القبطي الذي ضربه محمد بن عمرو بن العاص، وقال له أنا ابن الأكرمين، فذهب القبطي إلى المدينة المنورة، وشكا إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ما أصابه من الهوان، فاستقدم عمرُ عمرًا وابنه معه، وطلب الخليفة من القبطي أن يقتص، وقال له: "دونك الدرة، فاضرب بها ابن الأكرمين"، فضرب القبطي محمد بن عمرو بن العاص، وقال الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ كلمته الخالدة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟.

وبعد هذا اللقاء التاريخي.. تصدر مشروع الحوار الساحة الدولية وانطلقت المنتديات في مناطق مختلفة، واتسعت دوائر الحوار. ولقد استحق "كولن" أن يحتل المرتبة الأولى في قائمة أهم مائة عالِم في استطلاع أجرته المجلة الأمريكية "فورين بوليسي Foreign Policy (عام ٢٠٠٨)، والمجلة البريطانية "بروسبيكت" Prospect. كما حصل على جائزة "غاندي" العالمية للسلام (عام ٢٠١٥)، وقد أَنشأت له عدّة جامعات في الولايات المتحدة الأمريكية، وإندونيسيا، وأستراليا، أقسامًا خاصة باسمه (أي كرسي أكاديمي)، ومراكز علمية متخصصة، وانعقدتْ مؤتمرات وندوات دولية عديدة في جامعات عالمية لدراسة أطروحاته ونظرياته الدعوية والتعليمية والفلسفية والإنسانية.

"كولن" وبناء الجسور بين العالمين الإسلامي والغربي

لعل من أهم شروط نجاح الحوار البدء بالقضايا المتفق عليها: كالوحدة الإنسانية، والقيم الأخلاقية، والتركيز على الجوانب الإيجابية والقواسم المشتركة، ثم يتطرق إلى مختلف القضايا الأخرى. وأن يكون الحوار متكافئًا، تتوفر له شروط المساواة والندية والإرادة المشتركة، وأن تتعدد مستوياته وتتفاوت درجاته؛ بحيث يكون حوارًا شاملاً. وأن يهدف إلى تحقيق منافع مشتركة للطرفين، وأن يؤدي إلى تأمين المصالح التي يحرصان عليها، والتي لها صلة بالتقدم في مجالات الحياة ثقافيًا وعلميًا، واقتصاديًا واجتماعيًا، بحيث يكون لهذا الحوار تأثير على مجمل العلاقات بين المسلمين والغرب، ويعود بالنفع والفائدة على الجميع.

والمتتبع لأدبيات الأستاذ "فتح الله كولن" يجد تركيزه على خَلْق هذه الجسور المشتركة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي بجانب أهمية إدخال التعليم والتقدم العلمي والتكنولوجي في العالم الإسلامي: (فالطريق إلى العدالة مرصوف بالتعليم العالمي الجيد، وهذا وحده ما يمنح الناس الفرصة لتحقيق قيم الحوار والتسامح الكافيين لاحترام حقوق الآخرين[١٠]. كما يؤكد "كولن" على: الاحترام المتبادل، والتسامح، والحوار، والواجب والالتزام الأخلاقي، والمساهمات النزيهة، والخدمات التطوعية. ودعمه باستمرار للتسامح والعفو كقيم إسلامية جوهرية متأصلة في قيمة التواضع. ويرى أن من يؤمنون بتفوقهم الشخصي لا يستطيعون الدخول في حوار حقيقي على عكس المتواضعين فهم أكثر استعدادًا للحوار بشكل منفتح وذي مغزى. ولدى "كولن" إصرار على المضي قدمًا في الحوار، فهو يقول: "إن أنشطتنا المستمرة هي لصالح الإنسانية جمعاء. ويجب ألا تقتصر على تركيا فقط". وكثيرًا ما يكرر أن حوار الثقافات ليس "رفاهية"، بل "ضرورة" في العالم الكوني اليوم، فتعددية العالم المعاصر ستستمر وتبرز تحديات أصعب وأصعب: "ستستمر العقائد والأعراق والتقاليد والعادات المختلفة في التعايش في هذه القرية الكونية، فكل فرد فيها يمثل عالما فريدًا من نوعه ولذلك فالرغبة بأن تصبح البشرية متشابهة هو ضرب من المستحيل، ولذا فإن السلام يكمن في احترام تلك الاختلافات واعتبارها جزءًا من طبيعتنا، وإلا فإنه لا مفر من أن العالم سيقضي على نفسه بسبب الصراعات والنزاعات والحروب الأكثر دموية التي سيقع فيها، وبالتالي يعد الطريق لنهايته".

هل الحوار ذوبان في الآخر؟

قد يثير البعض مقولة: إن الحوار مع (الآخر) ذوبان فيه، وتمييع للثوابت العقدية والقيمية والإيمانية. فهل هذا القول صحيح؟. إنك لا تدعى للحوار وتتحاور إلا إذا كان لك ثقل من عقيدة وقيم وفضيلة وفكر، ومنهج تؤمن به، وتدعو له، وتقدمه للآخر، للتعاون أو المثاقفة أو حل معضلة: (لا ينبغي للمؤمن أن يخشى من الحوار، ولا أن يقلق من الخسائر، ففي الحوار نوع من التنافس بين القيم من ناحية ما، فلو أنكم ترتابون في قيمكم فهذا يعني أن إيمانكم بالله ضعيف، ولو قلتم: "إننا سنتأثر سلبًا إذا خالطنا هؤلاء أو أولئك، وسيعود هذا بالضرر على ديننا"، فهذا يعني أن لديكم مشكلة في الثقة بدينكم الذي تمثلونه؛ إذا كنتم توقنون أن قيمكم هي الغالبة والرابحة في سوق القيم فلا مبرّرَ إذًا للخوف من إجراء الحوار مع الآخرين، وإن كنتم على ثقة من أنكم بمصافحتكم الآخرين واحتضانكم لهم ستنتقل جمالياتكم إليهم وتستفيدون أنتم كذلك من جمالياتهم فلا داعي إذًا للخوف من الحوار معهم) (فتح الله كولن: فلسفة الحوار،

موقـع الأسـتاذ فتـح الله كولـن، بالعربية). وخذ مثالًا يدعم هذا الفكـر: لولا التعاون الحثيث بين مؤسسة الأزهر والفاتيكان ومنظمات أهلية أخرى، لتم "تعميم عالمي" لما خططت له مؤتمرات -وبخاصـة وثيقـة بكيـن عـام ١٩٩٥م- مـن تكريـس مصطلـح "الجنـدر"، والأنماط غير السـوية من المعاشـرة الجنسـية، ونشـر الإباحية، وحق المتماثلين جنسـيًا في الزواج والتبنى والميراث، وتقنيـن الإجهـاض والحمـل خارج الأسـرة، وتحديد مفهوم الأسـرة: لتحقيق اللـذة أيا ما كانت. إذ بالحوار تم التأكيد على إعادة الاعتبار للأسـرة "الرابطة المقدسـة" وأهدافها، ودورها التربوي والاجتماعي.

ثـم انظـر لـ "كولن" وهو الرجـل الذي عاش حياته داعيًـا، ومعلمًا، ومربيًـا، وملازمًا لعباداته، وغريبًـا عـن وطنـه، وقابضًـا على دينه، وقد لاقى في سـبيله ما لاقى فأنّـى يذوب في (الآخر) عبر الحوار معه: (صحيح أن الاستماع للأفكار الباطلة يجرح الروح ويعكر صفو الفكر، ولكنْ علينا إبداءُ الصبر في هذا الخصوص وتجرع هذا الألم في سبيل اكتساب قلب جديد؛ وإلاّ فإننا إن لم نعط له حق وفرصة إبداء الرأي والفكر، وقمنا باحتكار الكلام، وملأنا المجلس بكلامنا فقط... فقد لا يدخل من هذا الكلام إلى عقله شيء. فكم من مرشد اشتهر بهذا الأمر وأصبح مكروها بسببه. ومثل هؤلاء يشبه من يحاول نقل الماء بقربة مثقوبة أو بغربال؛ فهو على رغم بذله لجهود جبارة لا يستطيع الوصول إلى نتيجة إيجابية)[١١].

ويعـرف "كولـن" "الخُلـق" بأنه:"يأتـي بمعنى رسـوخ الديـن، والعيش به، وامتثـال القرآن دون خلل"[١٢]. لذا فقد أرسى "كولن" في مقولته: "كن كالفرجار، قدم ثابتة في المركز، وأخرى تحلق لأقصـى مـدى". حيـث الانطلاق من ثوابت مرجعية تسـتند إلـى الكتاب والسـنة النبوية، ومن ثم المحبة الغامرة كي تنتفـع الإنسـانية بتلكم التعاليم الإسـلامية التي أعادت "حركة الخدمة" فهمها وإحياءها من جديد. ولقد حدد "كولن" أوصافًا لورثة الأرض منها: (أن تكون رؤيتنا أفسـح في حرية الفكر وحرية الإرادة في مسـيرتنا نحو عوالم مختلفة، سـواء في سـلوكنا مـع الآخرين، أو من زاوية أنانيتنا الذاتية وتمسكنا برغباتنا. فالحاجة ماسة اليوم إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحـر وتنفتـح علـى العلـم والبحـث العلمـي وتستشـعر التوافق بين القـرآن وسـنّة الله على الخط الممتـد مـن الكائنـات إلى الحياة[١٣]. وهو فـي حواره المتوازن مـع (الآخر) لا يري تقبل معطياته بالكلية، وكذلك لا يريد رفضًا مسـبقا لتلك المعطيات، وإنما يجب التعامل مـع هذه المعطيات فـي ضـوء التمحيـص العلمـي المتأني القائم على المنهج الموضوعـي الدقيق. لذا فقد دافـع عن الحوار بوصفه التزامًا وحراكًا ضروريًا لعالمنا المعاصر وبخاصة في قضايا جوهرية:

– الإقرار بالتبادل الحضاري، والتثاقف المشترك.
– الإقبال على الآخر بروح علمية وموضوعية مجردة.
– احترام القيم الإنسانية والأخلاقية للشعوب.
– حرية الفكر، وأهمية التعليم.
– غرس الفضيلة في الأفراد.
– المسؤولية الإنسانية.

ولعل الإجابات الحوارية الناجعة عن مثل هذه القضايا من شأنها وضع حلول للمشاكل العالمية المشتركة، وإيجاد نظام عالمي عادل ورحيم وسلمي. وهو التحدي الذي تواجهه الحضارة الإنسانية في القرن الحادي والعشرين.

إجمال الأسس الفكرية لمنطلقات الحوار

لقد تنامى إدراك عقلاء العالم ـ ومنهم الأستاذ "كولن" للواقع الإنساني "المتأزم/البائس"، والشعور "بوجع افتقاد الغاية، والهناء الوجودي، والتعايش المشترك" والوعي بما قد يُنتج من أخطار مستقبلية على الإنسان والبشرية بسبب التوجه المادي الأحادي. لذا فقد تشكلت الأسس الفكرية للأستاذ "فتح الله كولن" في فلسفته للحوار مع (الآخر) على النحو التالي:

– الحوار منهج قرآني ونبوي أصيل.
– الإسلام يؤكد على تنوع البشر فهي مشيئة الله تعالى، وسُنة من سننه في كونه.
– الإسلام يشير إلى أن البشرية جاءت من أصل واحد، ثم تنوعت شعوبًا وقبائل للتعارف والتعاون وفق معيار أساس: التقوى والعمل الصالح.
– شريعة الإسلام حريصة على السلم والسلام العالمي وتحض على صونه، فهو دين التسامح والإخاء الإنساني.
– احتضن الإسلام كل القيم الإنسانية العليا التي تنظم سلوك المجتمع الإنساني من تعاون وتضامن وسلام وأمان ومحبة واستقرار. وضبط هذا السلوك الإنساني بما يكفل كرامة الإنسان.
– الحوار ليس ترفًا فكريًا بل ضرورة ومصلحة إنسانية لإنقاذ البشرية.
– ينبغي تنمية "قابليتنا للحوار" وعقد أواصر الرحمة والتسامح ومحبة الخير.
– ينبغي أن يكون الحوار بالأفعال الإيجابية لمحاربة الجهل والفقر والفرقة وذلك عبر التعليم والعمل والوحدة والعيش المشترك.

- فتح النوافذ التي نطل منها -بتصالح، وتفاهم، وتواصل، ومودة- على النفس، والأهل، والأقرباء، والأصدقاء، والجيران، والزملاء، والناس كافة.

- ينبغي توفير مُناخ ورأي عالمي يتسم بالاحترام المتبادل، وروح التسامح والتعايش والتعاون.

- توفير قواسم مشتركة ومنها عدم الفصل بين الدين والعلم فهي نقطة انطلاق لحوار إسلامي-مسيحي.

- تشجيع الحوارات الجادة وتوفير مقومات الإعداد المناسب لها والاهتمام بتحقيق أهدافها من أخلاقيات مشتركة نادت بها الشرائع السماوية.

والخلاصة: يسعى الأستاذ "فتح الله كولن" وأمثاله لجعل العالم أكثر تسامحًا تسوده قيمٌ عالمية. فهو يحث على عدم توقف حوار الأفعال الرحيمة والأفكار التعاونية حلا لمشاكل العالم، بدلًا من المواجهات الفكرية والسياسية والعسكرية التي تزيد الوضع البشري تأزمًا وتعرض مصيره للخطر. ولذا فالأستاذ "كولن" يجاهد كي يعلو حوار الفكر واللسان على لغة السلاح والسنان.

الهوامش:

(١) رواه أحمد في مسند الأنصار.

(٢) فتح الله كولن: "حوار مع النفس": منشور في مجلة "سيزنتي" بعنوان: Bir Sorgulama، العدد:٢٥٢ (يناير ٢٠٠٠، ترجمة: "أجير أشيوك".

(٣) مجلة حراء العدد: ٦٩.

(٤) للمزيد راجع د. جون باول: فتح الله كولن.. حياة في الخدمة، ط١، دار الانبعاث ٢٠٢١، ص:٢٦٦-٣١٧.

(٥) للمزيد راجع عبد المجيد بوشبكة: البعد الروحي والخطاب الإنساني في مشروع الخدمة، ٢٠١٩/٠٤/٢٨، المجلة، حوارات، رؤى حضارية، فلسفة الدعوة.

(٦) زكي ساري توبراك: كيف تسهم مدارس الخدمة في تحقيق السلام العالمي؟، مجلة نسمات، دراسات، قضايا معاصرة.

(٧) انظر: التعليم المعاصر بين سوق العمل وبناء الشخصية، نسمات الإصدارة العاشرة، ٢٠٢١.

(٨) "جيل كارول": أفكار كولن داخل السياق الأكثر رحابة للحركة الإنسانية،٢٠١٩/٠٤/١٣، مجلة نسمات.

(٩) "محمد أنس أركنه": فتح الله كولن، جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: ٢٤٠-٢٤٢، دار النيل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، القاهرة)، وراجع د. جون باول: فتح الله كولن.. حياة في الخدمة، ط١، دار الانبعاث ٢٠٢١، ص: ٣٢٩-٣٣٢.

(١٠) مجلة نسمات: الإصدارة التاسعة.

(١١) فتح الله كولن: "فن الحوار، مسجد بُورْنُوَا"، ٢٤ ديسمبر ١٩٧٦؛ الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

(١٢) "محمد أنس أركنه": مرجع سابق، ص: ١١٩.

(١٣) د. عبد المجيد بوشبكة: "فلسفة جديدة لفهم القرآن الكريم"، الفصل الخامس، المبحث الأول: "الأستاذ كولن والتوجه الإنساني"، موقع نسمات٢٠١٦/٠٧/١١.

العربي السيد عمران

شاعر فصحى وعامية، يلقب بالشاعر الحادي، من مواليد ميت غمر بمحافظة الدقهلية مصر، حاصل على ليسانس الآداب في اللغة العربية من جامعة الزقازيق عام ١٩٩٦م، ويعمل في التعليم والتحرير اللغوي، وقد صدر له ديوانان عام ٢٠١٦ م هما ديوان: الحادي، وديوان: ترنيمات على أوتار الحب، وهناك عدة دواوين أخرى تحت الطبع. ويعمل منذ ٢٠١٨ على صياغة (ألوان وظلال) للأستاذ فتح الله كولن صياغة شعرية تنشر في مجلة "حراء".

رؤية كولن الشعرية
في التواصل مع الآخر

إن المتأمل في شخصية الأستاذ كولن يرى أنها شخصية شاملة، تجمع من كل شيء بطرف، فهو يضم في ردائه الفكرَ والفقه والدعوة والسياسة والأدب، فقد عُرِفَ فتح الله كولن -كما تقول الأستاذة الدكتورة هدى درويش- "أنه واعظ وكاتب وشاعر وعالم مفكر"[١]، ونحن الآن بصدد الحديث عن كولن كشاعر صاحب دعوة للتواصل مع الآخر.

إن دعوة كولن دعوة عالمية، "فقد تخلص من أسر المحدوديات المكانية والزمانية، وقفز قفزة نوعية، إلى خارج وطنه التركي إلى جهات العالم العربي، بل وإلى جهات العالم شرقه وغربه، منطلقا من قناعته بأممية الإسلام وبعالميته وبقدرته الفائقة على التعايش والمجاورة مع كل الأقوام والأوطان"[٢]، لذا فإننا نجد أن أشعاره جاءت معبرة عن تلك الدعوة، داعية

إلى التواصل مع الغير، والتعاون في مساحات المشترك الإنساني الذي يجمع بين البشر، فكولن -كما يقول الأستاذ الدكتور سليمان عشراتي في كتابه الانبعاث الحضاري: "يؤمن بحق البشر في تداول المشتركات التجهيزية والإنجازات الإنسانية، وبكونها ثمرة ومكسبا لا ينبغي التقصير في الأخذ به والتمرس عليه، لا سيما في الحقل العلمي وفي المجالات التطبيقية، إذ بتوسع المعرفة الإنسانية يتحقق التطور، والتطور حين ينبني على مسطرة من أخلاق النزاهة والحيادية، ينعكس بثماره على الإنسانية جميعًا"[٣].

وقد تنوعت وتعددت الموضوعات التي تناولها كولن في أشعاره، ولكن اللافت للنظر أن هناك موضوعا احتل مساحة كبيرة من أشعاره ألا وهو التواصل مع الآخر، والتسامح مع الغير، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائد كولن من دعوة إلى التواصل والتسامح ونبذ الخلافات، والتقريب بين وجهات النظر، ويؤكد ذلك أن يعرف كولن في تركيا وفي العالم بلقب (داعية الحوار والتسامح والتوافق)[٤].

وسوف ينتظم هذا البحث في أربعة مطالب:

المطلب الأول: كولن شاعرا

إن الأستاذ كولن كما هو مفكر وداعية كريم فهو أيضا أديب وشاعر عظيم، ولقد ذكر الأستاذ (أرطغرول حكمة) أنه حين التقى كولن بالسياسي والشاعر (مصطفى بولند أجويت) "لم يكن لقاء سياسيا بل بحث معه موضوعات أدبية وصوفية وفلسفية"[٥]، وهذا يبين لنا أن كولن شخصية أدبية، وعنده قضايا يمكن مناقشتها مع شاعر تركي معروف.

ولزاما علينا قبل أن نلجَ إلى عالم كولن الشعري، أن نبين بشكل بسيط رؤية كولن للشعر، "فالشعر كما يراه كولن ليس مجرد كلام موزون، ولكن الأهم ما يملكه من جاذبية وما يحمله من مضمون، فالشعر الحقيقي تعبير عن الجمال والتناسق الموجود في روح الكون، وعن البسمة الموجودة في جمال الوجود، وهو بذل الجهد في محاولات البحث فيما وراء هذا العالم، وإن كل كلمة للشعر لا يمكن فهمها بحق إلا بعد معرفة الحالة الروحية التي فجرت ذلك الشعر، فهو يولد ويأخذ شكله حسب إيمان الشاعر الذي يؤثر في أحاسيسه ونظرته للحياة، وفي مملكة الشعر الحق، تصل الأنظار إلى النور، وتقرب المسافات البعيدة، وتبلغ الأرواح عزما وشوقا لا ينطفئان، والأشعار-عنده- كالأدعية، تعبر عن العالم الداخلي للإنسان بكل ما يموج فيه من شوق وحزن، ومد وجزر، فكل مناجاة شعر، وكل شعر مناجاة، وذلك بشرط أن يعرف الشعر كيف يفتح أشرعته نحو اللانهائية، حتى يحلقَ في سماء الفكر الصافي بأجنحة القلب وبقوة

الروح المتغذية من فكر الخلود"[٦]، ومن خلال تلك النظرة للشعر نرى أن أشعار كولن عبارة عن معزوفات بلاغية راقية يجتمع فيها البيان الرائع، والتصوير المبتكر، والفكرة المدهشة، والمعنى المكثف الذي يمس الجوانب الإنسانية العامة.

ويتمثل نتاج كولن الشعري في أمرين:

الأول: ديوان كبير بالتركية أطلق عليه اسم (المعزف المكسور، أو الريشة المكسورة، أو ريشة المعزف المكسورة) على اختلاف الترجمات للعنوان، وهو ديوان ثريّ لم يترجم كاملا حتى الآن، لكن تمت ترجمة قصائد عديدة منه، وقد اجتهدت في جمعها والاطلاع عليها وقراءتها قراءة أدبية.

الثاني: مقاطع قصيرة كتبها كولن تعليقا على مجموعة من الصور، تصل إلى المئات، وهي تمثل دفقة شعورية مركزة، تعالج بقوة حالة معينة أو فكرة هامة، وقد تمت ترجمة العديد منها إلى العربية، وجمعها في ديوان تحت عنوان ألوان وظلال، قام على تعريبه وإعادة صياغته الأستاذ أديب الدباغ[٧].

المطلب الثاني: التواصل في شعر كولن

"لقد اهتم الأستاذ فتح الله كولن بفكرة الحوار والتواصل والتفاهم بين التيارات المختلفة"[٨] ولقد أتاحت له ثقافته الواسعة أن يخاطب مختلف الشرائح الاجتماعية، وحين نتأمل في قصائد كولن نجد أن كلمة (الوصال) من الكلمات الشائعة فيها، وهي وإن كان فيها إشارة صوفية إلا أنها تعتبر انعكاسًا لما يدور في خلَده، فالوصال غاية، ومن نماذج ذلك:

قوله في قصيدة (الفارس الأمجد):

ها قد التقى المستقبل والماضي في محطة الوصال...

وقوله في قصيدة (هؤلاء الأبطال):

وإذا بالروح تنتفض بتوق، وتندفع حالمة بلحظة الوصال

ويخاطب كولن المعاناة في قصيدة (المعاناة) ويقول لها:

أنت وسيلة الوصال في الدروب المؤدية إلى الحق (الله)...

ويؤكد أن الوصال بالنسبة للإنسان حلم لا يتخلى عنه مدى العمر، فيقول في قصيدة (أواصر الروح):

الإنسان الذي خُلِقَ بحاجة إلى العشق والوصال،

لا يفتأ يركض نحو هذا الأفق العمر كله.

وفي قصيدة (عالم الإيمان الأطلسي) ينظر كولن إلى الوصال على أنه في حد ذاته بُشْرَى، فيقول:

في هذا الحلم العميق تبحر الأرواح نحو الخلود،
وتموج الخواطر خضرة مع وفرة الذكريات؛
ثم... يأتي الوصال بشرى

ويقول في قصيدة (تلال من زمرد):

في هذا المكان الذي اندمج فيه العشق مع الشوق،
تُحلّق الروحُ نحو الوصال درجة فدرجة

ويبلغ تأكيد كولن على معنى الوصال إلى تسمية إحدى قصائد ديوانه (الريشة المكسورة) بـ (الوصال)، وتسمية قصيدة أخرى بعنوان (الواصلون).

"وإن النموذج الإنساني الذي تكون في المدرسة الفكرية لفتح الله كولن يعلم جيدا أنه مسؤول بمهمة سامية نبيلة هي مهمة إصلاح العالم وحمل إكسير المحبة والأخوة الإنسانية إلى كل مكان"[٩]، من هنا ومن خلال التأمل في قصائد كولن نجده يؤكد دائما على فكرة العمومية والكونية من خلال تعبيرات أخرى متكررة في شعره بصورة واضحة، فلا نكاد نرى قصيدة من قصائد كولن دون إشارة إلى كل مكان وكل ربع..، ولا شك أن هذا الشعور بالكلية -إن صح التعبير- لا يتأتى إلا من خلال تواصل وتسامح وتعاون أيضا، ومن أمثلة ذلك:

في قصيدة (نشيد الفارس) يقول:

لم أبرح أسأل عنك في كل مكان حللتُ فيه

وفي قصيدة (رجل القضية) يقول عن القائد الرمز:

في يمينه مشعلته ينشر الضياء في كل مكان،
تضيء القناديل صفا صفا في كل ربع يمر عليه

ويقول:

تهب الريح من كل اتجاه حاملة أريج الربيع

وفي قصيدة (الربيع ذو الشعر الذهبي) يقول:

جمال في كل مكان، تناغم يغمر الحياة،

وفي قصيدة (تلال من زمرد) يقول:

عرسٌ في كل ربع، عيد في كل مكان

وفي قصيدة (الهائمون بالنور) يقول:

نشروا نورا في كل مكان مروا به.

وفي قصيدة (قلوب معانية) يقول:

فأبشر بحياة تنتفض في كل مكان، ويتمتم كل شيء بـ"الربيع".

في قصيدة (نسمات من الآخرة) يقول:

عالم لا ظلمة في أي جزء من أجزائه...

وفي قصيدة (أحلام جميلة) يقول:

وأريج البعث يتقاطر من كل ركن؛

وفي قصيدة (الوصال) يقول:

كل مكان يسيرون فيه روضة من الفردوس.

وفي قصيدة (المنتبهون إلى الخلود) يقول:

هذا عالم الأمل، وفي كل ركن نوافير بلورية

يجري من صنابيرها نور، والشاربون سكرى...

وفي قصيدة (الفارس الأمجد) يقول:

ويطل ربيع يتلوه ربيع أبهى وأزهى في كل مكان...

وفي قصيدة (السبيل الأغر) يقول:

كانوا يبنون عالما جديدا، دون كلل أو ملل...

كان كل ركن يشع نورا كأنه ينافس السماء!

إن تعبيرات نحو (كل مكان، كل ربع، كل اتجاه، كل شيء، كل ركن) تؤكد هذه الكلية التي نعنيها، وهي تحمل ضمنيا معنى آخر وهو التحرك والانتقال من مكان إلى آخر، فدعوة كولن للتسامح والأخوة والتواصل ليست دعوة محدودة، لكنها دعوة عالمية تتطلب السعي والحركة في كل مكان، وتلك العالمية هي التي جعلت موضوعات الشعر عند كولن تتسم بالعمومية، فنحن لا نحس في قصائده بأية تجارب ذاتية أو معاناة شخصية، كعادة الشعراء في الكتابة عن هجر الحبيب أو وفاته أو الشكوى من الدهر، أو بيان موقف سياسي معين أو غير ذلك مما يسِمُ القصائد بوسْم الخصوصية، أو الذاتية، أو المحلية! فعند كولن نجد أن معظم القصائد -إن لم تكن كلها- تتناول أفكارا عامة، وتصلح للتعبير عن الإنسان أي إنسان بصرف النظر عن الزمان أو المكان، وأيا كان لونه أو جنسه أو دينه، وإن تلك القصائد لو ترجمت إلى أي لغة في العالم،

فلن يشعر أصحاب هذه اللغة بأي جفوة أو فجوة بينهم وبين الموضوعات التي تتناولها..!، فهي قصائد عامة أو قصائد عالمية! ويؤكد تلك العمومية أيضا أننا لا نكاد نجد ذكرا لاسم (تركيا) مثلا في شعره، مع مراعاة أننا لا ندعي أننا اطلعنا على كل الإنتاج الشعري للأستاذ كولن، ولكن ما اطلعنا عليه بالفعل مما نشر سواء من ديوانه (الريشة المكسورة) أو (ألوان وظلال) -وهو إنتاج ليس بالقليل- يصلح أن نستنتج منه هذا الاستنتاجَ ونقرّر من خلاله تلك الحقيقةَ!

المطلب الثالث: مفاتيح التواصل مع الآخر

هناك مفاتيح كثيرة لدى كولن للتواصل مع الآخر والتعاون مع الغير، منها:

الطهارة والتجرد من الذات

في أكثر من موضع في القصائد يؤكد كولن على صفة الطهارة، فهي المنطلق الأول لأي عمل وكأنها عنده مرادف لمعنى الإخلاص، والإنسان الفاضل عنده -كما يقول الأستاذ محمد أنس أركنه- "هو الإنسان المتسامح اللين الجانب، وهو الإنسان المضحي والمخلص في سبيل المجتمع والإنسانية"[١٠] ، وحتى يتحقق التواصل مع الآخر لا بد من تخليص النفس وتطهيرها من الشوائب التي تعلق بها، والتي قد تكون حائلا بينها وبين السمو والارتقاء والوصول إلى الغاية المنشودة.

في قصيدة (جيش الضياء) يصف النواصي بأنها طاهرة، فيقول:

جيش الضياء، نواصيهم الطاهرة تشع بالأنوار.

ويقول في قصيدة (الفارس الأمجد):

ها هم الفرسان الأطهار على عروش من نور يتربعون.

ويقول في قصيدة (السبيل الأغر):

وإذا بالغُرّ الميامين قد مروا تتلألأ وجوههم طهرا

إن حب الذات والأنانية من الأمراض التي ما فتئ الأستاذ كولن ينبه إليها ويحذر منها، ويصف الأدوية لها، سواء أكانت أنانية فردية يحب فيها الفرد نفسه أكثر من غيره، أم أنانية جماعية تعلي فيها طائفة ما نفسها فوق الطوائف الأخرى لأي سبب من الأسباب، "وقد رسخ الأستاذ فتح الله مبدأ الشعور بـ"نحن" على إذكاء الشعور بـ"أنا" ... فيجب تجاوز الإحساس بحب الذات وجعل الشعور بـ"نحن" في المقدمة"[١١].

ويشير كولن إلى أن السمو على الذات والتخلص من الأنانية يفتح آفاقا كبرى أمام الإنسان، فيقول في قصيدة (هؤلاء الأبطال):

كأنه قد انفتحت نافذة سرية من جانب الماوراء،
وبقدر ما يستطيع الإنسان التجرد من ذاته؛
يسمع ألحانا أخروية تنبعث من قلبه،
ويصغي إلى نغمات فردوسية تتعالى من نَفَسه.

ويؤكد كولن على أن البطل الحقيقي يجب أن يتخطى حدود نفسه، بلا طمع فيقول في قصيدة (رجل القضية):

بطل هو يتجاوز كل حاجز من حواجز النفس؛
لا يطمع في ثروة أو مال أو درهم أو دينار؛
الزمان في يده طيّع مثل كرة من خيوط الصوف.

وينبه في قصيدة (لا تنقضوا عهودكم)، فيقول:

مخلصًا كنت،
فإخلاصك لا تخدش،
وصالح عملك لا تبطل..
بطلاً قَدِمْتَ، وستبقى بطلاً،
للآخرين تضحّي...
تقتحم النيران لأجلهم...

الإيمان والحب:

بداية إن الإيمان المقصود هنا لا يعني الإيمان بالله تعالى فحسب، ولكنه يشمل الإيمان بنبل الغاية، وجلال المهمة، وصحة الطريق، وقدرة الإنسان على تحقيق ما يصبو إليه، وهذا الإيمان هو ما يدفع المرء إلى الصبر على كل المعوقات ومحاولة التغلب عليها وعدم الرجوع عن الهدف.

يقول كولن في قصيدة (تلال من زمرد):

مهما ضاقت الآفاق، وأنهكت الدنيا الإنسان،
فالإيمان يفتح له آمادا واسعة لا تنتهي...

ويحث الإنسان على التحليق في السماء بجناح الإيمان، محذرا إياه من الركون إلى العثرات.

فيقول في قصيدة (إبان بزوغ الفجر):

تعال، رفرف بالإيمان وحلق في السماء؛

إياك أن تتعثر بالأبعاد التي تضيّق على روحك!

ولعل هذا ما أشار إليه كولن في قوله: "المهم أن تؤمن بسلامة الطريق. فإذا غيرت طريقك لأنك تتعرض لبعض الضغوط أو المضايقات من هنا أو هناك، فهذا يعني أنك في شك من صحة الطريق الذي تسير فيه، فإذا لم يكن عندكم شك من طريقكم فينبغي أن تثبتوا عليه. انظروا إلى الأنبياء العظام، سيدنا موسى وعيسى والحبيب المصطفى ﷺ، بل حتى رموز الديانات الأخرى مثل بوذا وبراهمان، تجدون أيضا أنهم تعرضوا لألوان شتى من الإساءة والإيذاء، قد يعتزلون الناس حينا من الوقت، لكنهم لا يحيدون عن منهجهم جراء تلك الممارسات والمضايقات"[١٢].

ويحذر كولن الإنسان من أن يسجن نفسه في خوفه أو قلقه، فيمنعه ذلك من التواصل مع الغير، لذا يدعوه إلى أن يتسلح بالإيمان، فيقول في قصيدة (إبان بزوغ الفجر):

تعال، رفرف بالإيمان وحلق في السماء؛
إياك أن تتعثر بالأبعاد التي تضيّق على روحك!
في ذاتك كامن ذلك السر الذي لم تسعه السماوات والأرضون،
لا يليق بك أن تسجن نفسك في الأرض والسماء!

وينبه إلى أن مصير الذين حرموا الإيمان هو الشعور بالغربة، فيقول في قصيدة (عالم الإيمان الأطلسي):

غربة الليل تَغشَى قلوبا حُرِمت لمسةَ الإيمان،
تغمر آفاقهم ظلماتٌ طبقة فطبقة،
سواد دامس، تيه، تفقد فيه النفوس معناها،
كأن ثقبا أسود قانيا سيظهر بعد حين،
في مكان تذوب فيه الأرواح للإيمان حسرات...

وفي القصيدة ذاتها يقول:

أفق ذوي الإيمان ناصع مضيء كالسماء،
في عمق فريد تمضي اللحظات والساعات..
وجه الأرض مشاهد من الجمال يسحر ويسبي؛
كل درب هنا إلى الجنة يؤدي...
وقامات مشرقة تملأ الدروب تجري..

ويلفت كولن النظر أيضا إلى أن التحلي بالإيمان لا يتطلب الغنى والسكن في القصور، فيقول في قصيدة (الدنيا):

فكم من إيمان في الكهف ينبت،
وكم من إيمان في المغارات يورق،
وثماره تنضج..؟!
فقبورنا كهوف إيماننا،
إذا حُمَّ القضاء وحان الأجل...

وفي قصيدة (لغير وجهك لا ألتفت) يقول:

يا موتى القلوب،
يا غافلون، يا تائهون...
هاكم حياض الإيمان،
بها اغسلوا قلوبكم،
واغمسوا أرواحكم...
تَعُدْ الحياة إليكم،
وتجري من جديد في عروقكم...
وإنْ كنتم للاطمئنان تنشدون،
والأمنَ تريدون،
فعنهما خارج الإيمان لا تفتّشون،
وفي سواه بهما لا تحظون..!

ويقول في قصيدة (السبيل الأغر):

كان الجميع ينظرون بعين الحب إلى بعضهم بعضا،

ومن المعلوم "إن الفكر الإيماني يستمر في التأثير على الأنشطة الأدبية والعلمية، وسائر ما ينيط به الإنسان القلبي همته؛ لأن هذا التفكير المصهور بالنور الغيبي، سرعان ما يضحى بدوره مصهرًا يقولب كيان الفرد، ويكسبه جِبِلّة شفافة؛ لأنه يأخذ مع الترسخ صورة طبيعة ثانية في الإنسان، الأمر الذي يهيئ -بتنامي هذه الطبيعة الثانية في الأفراد والقطاعات والقيادات والمجاميع المرابطة في الورشات والمعامل والمختبرات- استحكام صبغة الفاعلية، ويفتح الطريق واسعًا لبناء الحضارة"[١٣].

المعرفة والعلم

"إن الأستاذ كولن يعتقد اعتقادا راسخا أن الإنسان يرقى بالتعليم، فأول واجبات الإنسان هو إدراك المعرفة، فالتربية والتعليم هما الوسيلتان اللتان يرتقي بهما الإنسان في مدارج الكمال"[١٤]، ولقد أولى كولن المعرفة والعلم أهمية كبرى من خلال المدارس المنتشرة في كل مكان في العالم، وكما قال في كتابه (الموازين): الجهل أسوأ صديق، والعلم أخلص صديق، عندما يغضب الجاهل يصرخ ويسب، أما العاقل فيقوم بالتخطيط لما يجب عليه عمله"[١٥].

وفي قصيدة (لسان الوجود) يبرز كولن أهمية العلم، فيقول في مناجاته:

منك نقتبس العلم، وعنك نأخذه..
وهذه الذرّة العرفانية،
سرعان ما تنقلب عندنا إلى يَمٍّ محيط..
بها نقيم الحضارات، ونبني الصروح،
ونكتشف المجاهيل...

فهذا الاكتشاف للمجاهيل يتطلب من الإنسان الحركة، والعلم، ولذا يدعو كولن إلى نشر العلم فيقول في القصيدة نفسها:

سطِّروا معاني هذه الكلمات،
على الحرير الأبيض...
وانشروها أعلامًا ورايات في سوق المعارف الكبرى...
ليقرأها مَن يقرأ، ويفهمها مَن يفهم...

كما يدعو إلى التأمل فهو الوسيلة لمن يريد أن يعلم أو يعرف، ثم يعلن في نهاية القصيدة خطورة هؤلاء المتغافلين، المعرضين عن التأمل أو العلم:

مَن شاهدَ ثمَّ عمي، ومَنْ سمع ثمَّ تصامم،
ولم يرَ في المخلوقات ألسنة ناطقات، وأقلامًا كاتبات..
فهو للكون عدوّ، وللكائنات خصيم،
ولنا معاند، ولربّ العالمين جاحد...

الارتحال والانتقال

لو نظرنا إلى المفاتيح السابقة لوجدنا أنها جميعا تشترك في صفة التأهيل، فكلها مؤهلات وإن شئنا أن نقول ممهدات ومكونات للشخصية (الطهارة والتجرد، الإيمان والحب، العلم

والمعرفة)، أما هذا المفتاح فيمكن اعتباره النتيجة اللازمة لكل المفاتيح السابقة، فإن طهارة الروح وتجردها، وإيمان القلب وما يحمله من حب، ومعرفة العقل وما فيه من علم، كل هذا ليست له أية قيمة ما لم يكن هناك حركة وارتحال وانتقال.

لهذا يدعو كولن إلى التنقل والارتحال، في قصيدة (إرادات حية):

تجول في قلب الحوادث مثل العارفين!

وانظر إلى الوجه المشرق للأفراح والأكدار..!

ويؤكد أن هؤلاء الراغبين في التواصل لن يتوقفوا؛ حتى يدركوا غايتهم، فيقول في قصيدة (قلوب معانية):

يهرولون في هذا السبيل باستماتة ليل نهار،

سيجرون دوما حتى يبلغوا الضياء...

لهذا هو يتألم على انهيار الجسور التي تصله بالآخرين، فيقول في قصيدة (روح الأمة)[١٦]:

انهارت الجسور واحدا بعد آخر، والدروب خالية من المسافرين،

العيون التي لم يبق أحد يتردد عليها، جفت...

وهذا التحرك رغم صعوبته لا يؤدي إلى الشعور بالسأم، فيقول في قصيدة (السبيل الأغر):

مررتُ على كل مكان، لم أشعر بملل أو سأم،

والتقيت بقوم يشربون الضياء من صنبور عتيق...

الإرادة القوية وعدم اليأس

ويربط كولن ربطا عجيبا بين القلق والإرادة، فكولن يرى أن هذا القلق مصدره ضعف الإرادة أو موتها فيقول في قصيدة (إرادات حية):

دع القلق والجزع، إن كانت إرادتك حية!

فكأن الأمل الآن مرتبط بصاحب الإرادة والعزيمة القوية لهذا يستأنف فيقول في القصيدة نفسها:

كن مصدر أمل -إن استطعت- للجميع!

من يبحث عن دار هادئة فليهرول إليك؛

من يدخل عالمك فليهلل غبطة وطربا...

إن مجرد فقد الأمل في التواصل مع الآخرين كاف وحده للخمول والكسل والقعود والغضب والتوجع، وتبدو الغايات أمام هؤلاء الكسالى وكأنها خلف جبال عالية لا يمكن الوصول إليها، يقول كولن في قصيدة (المنتبهون من الخلود) أنه إلى جوار المتفائلين أناس آخرون:

إلى جانب هؤلاء أرواح تتجرع يأسا،
مهما امتدت بهم السنون فالعمر قصير!
سخط، وثوران، وآهات لا تنتهي: "وا أسفاه،
في حياتهم يعانون، وفي رحيلهم حسرات يطلقون ويبكون...
أمامهم جبل، من بعده جبل، من بعده جبل آخر،
جَرَفت السيول السهول طرا، وكل مكان حدائق محطمة،
في القلوب يأس قاتل، في العقول جزع مرعب...
لهذا يحذر كولن من ضعف الإرادة، فيقول في (روح الأمة):
تصدّعٌ في الإرادات، صدمة مروعة في الأرواح،
شرذمة من الأشقياء نهبوا التاريخ وطمسوه؛
انهارت القيم، وتيتمت المقدسات،
ويتمني ألا تخضع الهمم العالية إلى النوم فيقول في الربيع المرتقب:
ليت الإرادة لا ترتمي في حضن ذلك السُّبات القاتل...

ويؤكد كولن دائما على فكرة الانتفاض والنهوض، فحتى لو حدث سقوط لأي سبب، فمن الواجب ألا يستمر هذا السقوط طويلا، بل يجب أن ينتفض الإنسان من ثباته، وينهض من كبوته، ويعاود السير إلى غايته، ويحضرني هنا قولي في إحدى قصائدي:

لا تطل الكبوة قم دعها .... وانهض وبعزم ودعها

وفي ذلك يقول الأستاذ فتح الله كولن في قصيدة (هؤلاء الأبطال):

وإذا بالروح تنتفض بتوق، وتندفع حالمة بلحظة الوصال،

ويقول في قصيدة (رجل القضية) معبرا عن أثر القائد في الكائنات:

وتنهض الأشجار العملاقة بعد سقوطها واحدة بعد أخرى،

ويقول في قصيدة (روح الأمة):

أعيش بأمل أن تنهض وتأتي...

وفي قصيدة (إبان بزوغ الفجر)، يقول حاثا كل فرد من أفراد الأمة:

انهض وأعلن سَعْدَ عمرك، أعلنه في كل مكان!
مبكرا انهض، قبل تلك الساعات التي تنهض فيها في قلب الليالي...

ويقول في قصيدة (المتوارون خجلا) مخاطبا هذا الطائر الرمز الذي يسعى إلى التواصل:

يا طائري...
من رماد الموت قُمْ،
اِنْهَض، ثمَّ انطلق...
فإذا أنكرتْك الأجواء،
وتحاشَتك الأعالي،
فلتنشقّ السماء أسَفًا،
ولتغر النجوم احتجاجًا وألَمًا..!

ومن أعجب ما ترى أن ينظر كولن إلى الأمور التي نراها سلبية على أنها أمور إيجابية، فتجده يمتدح المعاناة؛ لأنه يراها خليلا له، وأنها تذكره بالإنسانية والحب، وأنها في حد ذاتها هي السبب الأساسي للتواصل، وينظر إلى الآلام على أنها متعة، وأن الحرمان منها محنة، يقول في قصيدة (معاناة):

المعاناة خليلي عندما أخلو وحيدا،
ليتك تعلم بأي معان نبيلة تأتي؛
إنها تذكرنا بالإنسانية والحب.
العقول التي لا تعرف المكابدة لا ترى إلا سرابا،
الآلام متعة، والحرمان منها عين محنة الحياة...
أيتها المعاناة؛ أدركت أن كل عطاء أنت مصدره!
أنت وسيلة الوصال في الدروب المؤدية إلى الحق (الله)...

بل ويمتدح الظلام أيضا، فيقول في قصيدة (هؤلاء الأبطال):

كل غروب علامة لشروق في هذا العالم،
يتلو الظلامَ أمواج من ضياء دوما.

فكأن الظلام الآن ليس داعيا إلى التشاؤم، بل هو مقدمة للتفاؤل؛ لأنه من المؤكد أن بعد هذا الظلام أمواجا من النور

المطلب الرابع: آثار التواصل

التسامح والطمأنينة:

من أهم آثار هذا التواصل التسامح والطمأنينة، يقول كولن في قصيدة (رجل القضية):

وفي عالمه الأطلسي تفوح السكينة دوما وتسود الطمأنينة،
وتتعالى رائحة العنبر من كل موقد ينعم بشعلة منه.

الخضرة والنماء:

يؤدي إلى انتشار الخضرة والنماء، يقول كولن في القصيدة نفسها:

الديار التي مر بها تنتفض بالخضرة على إثره،
تهتف السهول فرحا وتغرد الهضاب والجبال بشرا...

انتشار الأخلاق:

فالمتواصلون ينشرون آدابهم وأخلاقهم في كل مكان، ويمنحون العالم كله سر البقاء والخلود كدليل على تواصلهم معه، وعدم انفصالهم عنه، وهؤلاء هم الذين ينشرون نورهم في كل مكان، يقول كولن في قصيدة (الهائمون بالنور):

هؤلاء الأبطال الذين هامت قلوبهم بالنور،
أطلقوا أشرعتهم ذات ليلة وأبحروا نحو الخلود.
هؤلاء الأبطال الذين هامت قلوبهم بالنور،
نشروا نورا في كل مكان مروا به.

السعادة

فالساعون إلى التواصل حين يدركون غاياتهم يشعرون بالسعادة يقول كولن في قصيدة (المنتبهون من الخلود):

في هذا المكان، السعداء الذين أحسوا بالأبد،
وشعروا بلذة وصال أخرى في كل لحظة،
دوما يرفرفون بعشق في سرور وحبور؛
هذا المنبلج في أفقهم فجر ساطع،
وما يشربونه ماء الحياة، وما يحملونه كأس الخلود...

ويقول في قصيدة (تلال من زمرد):

في هذا المكان الذي اندمج فيه العشق مع الشوق،
تُحلّق الروحُ نحو الوصال درجة فدرجة،
وأهل السَّعْد ممن أحسوا بالحق في وجدانهم،

ارتشفوا طعما آخر مع كل أمل جديد...

التواصل مع الأكوان:

لا يكتفي كولن في دعوته إلى التواصل مع الإنسان فحسب، بل يصل الأمر إلى التواصل مع الأكوان كلها، فيقول كولن في قصيدة (جيش الضياء):

ترفرف الملائكة في آفاقهم ليل نهار،
يحلقون مع الأرواح الطاهرة طوال اليوم،
تفتح السماوات لهم حضنها، وتحييهم الأفلاك إجلالا،

حتى وصل الأمر إلى أن السماء تداعب الإنسان، فيقول في (هؤلاء الأبطال):

والسماء بفضائها الصامت الهادئ والصافي،
تغمز لنا بعينها؛ وما بعدها عالم عجيب آخر...

بل وجعل الأنهار في جريانها إنما تسعى إلى التواصل مع البحر، يقول في (تلال من زمرد):

وتنطلق الأنهار شوقا إلى وصال،
من جبال شاهقة نحو البحار،

ويدفع الرياح إلى أن تهب بالخير بعد سكونها، ويحيي الأشجار أخرى من جديد، يقول في قصيدة (رجل القضية):

تهب الريح من كل اتجاه حاملة أريج الربيع،
وتنهض الأشجار العملاقة بعد سقوطها واحدة بعد أخرى،

وحين ينتشر النور ينجلي الظلام وتتفرق الخفافيش، ويخاف المتعامون من هذا الوليد الجديد، يقول في قصيدة (قلوب معانية):

في الأفق نور ساطع، والظلمات أصيبت بحُمّى،
تتطاير الخفافيش مرتبكة ومجروحة؛
يرتعد العميان من هذا المجهول الجديد،
ألا إنه فجر الأرواح الحزينة...

الخلود والبقاء

يرى كولن أن هذا التواصل يؤدي في النهاية إلى الخلود والبقاء، يقول في قصيدة (الهائمون بالنور):

سيعيش كل واحد منهم في ألف قلب،

في وجوههم بريق الخلود،
لن تبهت ذكرياتهم أبدا،
تماما مثل ورود ضفة الماوراء...

خاتمة:

- من خلال تلك الرحلة الموجزة في عالم كولن الشعري يتبين لنا ما يلي:
- للأستاذ كولن منزلة شعرية راقية، فهو ليس مجرد داعية أو مفكر إسلامي فقط، ولكنه أيضا شاعر من الطراز الأول.
- لكولن نظرة متميزة للأدب والشعر وللكلمة بصورة عامة..
- لا يمكن فهم الشعر فهما صحيحا إلا بالعودة إلى حياة الشاعر الذي أبدعه
- ديوان المعزف المكسور لم يتم ترجمته كاملا حتى الآن، وهو في حاجة شديدة لتكاتف الجهود من أجل إخراجه إلى النور كاملا.
- أشعار كولن تتسم بسمة العمومية، فموضوعاتها معبرة عن الإنسان في كل زمان ومكان.
- حرص كولن في قصائده على إبراز فكرة الاتصال والتواصل مع الآخر، والشعور بالمسؤولية تجاه الجميع.
- لم يرد ذكر التواصل والتسامح كثيرا، لكن تأكد ذكر لفظ الوصال، وألفاظ العمومية نحو في كل مكان في كل ربع وهكذا
- يتفاءل كولن بكل ما في الحياة، حتى المعاناة والظلام وغير ذلك مما يستبعده البعض من التفاؤل.
- من مفاتيح التواصل: التجرد وعدم الطمع، والإيمان والارتحال والإرادة القوية..
- من ثمرات التواصل مع الآخر: التسامح والطمأنينة، والخضرة والنماء، وانتشار الأخلاق، والسعادة، والتواصل مع الأكوان، والخلود والبقاء.

الهوامش

(١) تقارب الشعوب، أ.د هدى درويش، ص ١٠٠
(٢) فتح الله كولن في شئون وشجون، أديب إبراهيم الدباغ، دار النيل، ط١، ٢٠١٣م، ص ١٩٩
(٣) الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ.د سليمان عشراتي، ص ١٠٨
(٤) انظر مقدمة كتاب أنفاس القلب تحت عنوان (من هو فتح الله كولن؟)، ص ٨.
(٥) فتح الله كولن (قصة حياة ومسيرة فكر)، أرطغرول حكمة، دار النيل، ط٢، عام ٢٠١٤م، ص ١٠٥.
(٦) للمزيد يرجع في هذا إلى كتاب الموازين لفتح الله كولن، ص ١١٨.

(٧) أديب ومفكر ومترجم وباحث عراقي من مواليد الموصل ١٩٣١، عمل معلما، وكاتبا، وشارك في العديد من المؤتمرات الدولية، وله أكثر من أربعة عشر كتابا، وتوفي رحمه الله تعالى عام ٢٠١٧م.
(٨) فتح الله كولن (قصة حياة ومسيرة فكر)، سابق، ص ١٧٢.
(٩) د. محمد جكيب، أشواق النهضة والانبعاث، دار النيل، ط١، ٢٠١٣م، ص ٣٢٠.
(١٠) فتح الله كولن(جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية)، محمد أنس أركنه، دار النيل، ط٢ ، ٢٠١١م، ص ٢٣١.
(١١) مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي (مؤتمر دولي)، جامعة الدول العربية، دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠١١م، ص ٢٦٠.
(١٢) فتح الله كولن، مواقف في زمن المحنة، ص ٩٣.
(١٣) أ.د. سليمان عشراتي، الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، ص ١٥٣.
(١٤) أشواق النهضة والانبعاث، سابق، ص ٣١٧.
(١٥) فتح الله كولن، الموازين، ص ٢٥٤.
(١٦) هذه القصيدة وجدت لها ترجمتين، واحدة أولها:
فارسٌ كان هنا.. في ذلك السفح دفَنوه، نزَعوا قَمِيصَهُ، والكفَنَ مزَّقوه، قالوا احْذَرُوا..! قد ينهض من جديد..! فأثقلوا قبره بالصخور..
والثانية أولها:
بطل كان هنا، في ذلك السفح دفنوه... ثم من كفنه وقميصه جرّدوه. وخشية أن ينهض من جديد وضعوا عليه كومة من الأحجار..

محمد جكيب

أستاذ بجامعة شعيب الدكالي بالمغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. حصل على دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها سنة ١٩٩٣م. حصل على دكتوراه الدولة في الآداب سنة ٢٠٠٢م. عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ سنة ١٩٩٤م. عضو مؤسس لمنتدى الحوار الأدبي. مؤلف كتاب "أشواق النهضة والانبعاث قراءة في مشروع الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحي".

رؤى البيان والجمال

في فكر فتح الله كولن

من رحابة الباب

شخصية فتح الله كولن الأدبية لا يختلف حولها كل من تفاعل مع عالم هذا الهرم الفكري الشامخ، وتفاعل وأدبياته. لأن أفُقَهُ البياني، وخطه في الكتابة وأسلوبها، ومنهجه في الخطابة وطرقِها، تعكس كلُّها أبعادَه الأدبية والفنية، بل تعكس أبعادَه البيانية، وكل ذلك وغيره انعكاس لثقافته الواسعة، التي لم تخل من مرجعيات أدبية متنوعة في مقدمتها الخطاب القرآني ونماذج التراث الأدبي الإسلامي الزاخرة والغنية، وانتهاء بأمهات الأدب العالمي الرفيع، والجدير بالذكر في هذا المقام هو أن أحد أهم جوانب شخصية فتح الله كولن الفكرية متصلة اتصالا عميقا بمقدرته الفائقة على القراءة والحفظ والاستيعاب، ومتصلة بثقافته الواسعة والمتنوعة، القديم منها والحديث. وهو ما ساهم في رقي ذوقه وإحساسه الجمالي والفني وأثّر مباشرة في قلمه وفي أسلوبه الأدبي أو بالأحرى أسلوبه

البياني، كما أثر في رؤيته، وطبَعَها بالعمق والشمولية، ووسَمَ مشروعه الحضاري والحركي بسِمَةٍ جماليةٍ لا تخطئها العين الناظرة فحسب، فضلا عن العين المتنعمة، وأما تجلى ذلك كله ومعالمه الملموسة فتُطلب في منجزه كله، الفكري منه والمادي الموسوم ببعد عمراني حضاري شهد به الغرماء فضلا عن المنصفين والمحبين والمتأثرين به.

الجلال والجمال

إذا كان الجمال صفة تجلى بها الجليل على هذا الوجود، فإن الاعتناء بالجمال والحرص على طبع كل قول وكل عمل وكل سلوك بهذه الصفة هو الطابع والبصمة، التي يقف عليها المتأمل والباحث في كل ما يمت لهذا الرجل بصلة مباشرة كخطه التحريري مثلا وجوانب أخرى في حياته، أو بصلة غير مباشرة كمختلف المنجزات التي وجه مريديه ومحبيه وتلامذته إليها، وأقنعهم بجدوى إنشائها وفق نمط تتعدد سماته الإيجابية، ومنها سمة الأناقة والجمال، وهو ما يؤكد حرصه على تمثل صفتي الجمال والجلال، كما تجلى بهما الجليل في الوجود، ويوازيه حرص آخر هو غرس هذه الصفة وتمثلاتها في وعي كل من احتضنهم، وتحلقوا حوله.

حرص فتح الله كولن على أن تطبع أغلب المؤسسات التي أرشد إليها مريديه ومحبيه ومن اقتنعوا بفكره في مجالات الحياة المختلفة بروح الإتقان والجمال، والإتقان شعبة من شعب الجمال، بل شعبة من شعب الإيمان. ولذلك فإن من يلج مؤسسات الخدمة قبل منعها وإغلاقها وحجْزها يقف على هذه الروح في نظامها وترتيبها وحسْن تسييرها، ويقف على مختلف مظاهر البهجة التي تبعث على الاطمئنان والانشراح، ويلمس دقة العناية بفضاءاتها. كل ذلك وأكثر يعطي الانطباع بوجود روح رقيقة وذواقة خلف ذلك المنجز، وقلب حريص على الاستمداد من صفة الجمال التي تجلى الله بها على هذا الكون، وهذا الاستمداد ليس مجرد عبارات كلام احتفالي، بل هي قيم غير معزولة عن أصل الرؤية الأخلاقية العامة المحركة، ولكنها متدثرة برداء التنزيل والتفعيل. وعلى هذا الأساس ربّى كولن تلامذته، ونشّأهم على الإتقان والعناية بطبع الشكل والمضمون معا بالجمال، وعلى وسم شكل المنجز بوسم جميل والالتزام بأن يكون لما يقدمه المنجز من خدمة مطبوعا هو الآخر بروح الإتقان والجمال، على أساس كون ذلك وجها من وجوه التبليغ، الذي لا يقف عند المضمون فحسب، بل يتجاوزه ضرورة إلى الهيئة والشكل.

الجمال ومظاهر الاستمداد

حرص الأستاذ النورسي كثيرا في رسائل النور على التذكير بضرورة استيعاب حقيقة صفات

الله وأسمائه، وحقيقة تجليها في الوجود وفي الإنسان نفسه، وجعلها محور رسائله الخالدة، لأثر إيجابي على شخصية المجتمع وسلوكه، ورسائل النور مليئة جدا بهذه الإشارات والنكت البيانية، وفتح الله كولن هو أبرز من التقط هذه الإشارات واستوعبها وزادها قيمة بحرصه على تفعيلها على نطاق واسع، بتصييرها قيمة تطبع كل قول وكل تصرف وكل منجز.

وبكلام آخر إن الوقوف على ذوق الأستاذ فتح الله كولن الفني وعلى روحه الأدبية الراقية، يطلب أولا في المؤسسات الثقافية والعلمية وفي المعاهد والمؤسسات التربوية والتعليمية التي يعد بصورة من الصور منشئها أو موحيا بها. وقد وقف كاتب هذه الفقرات على هذه الروح عندما زار فتح الله كولن في مقامه/منفاه في الولايات المتحدة الأمريكية. وخاصة إقامته في بنسلفانيا، حيث يجد الزائر إشارات كثيرة دالة على الإتقان والذوق الرفيع والعناية بالجمال. وهي الروح التي يلمسها كذلك من عرف مؤسسات الخدمة على العموم وفي الولايات المتحدة الأمريكية على الخصوص، والتي لم يغب عنها البعد الإسلامي المعتدل الوسطي المتسامح، مقدمة بذلك صورة إيجابية عن المسلمين الذين يتمثلون أبعاد الإسلام الأخلاقية حق التمثل.

ومن منظور آخر إن أولى مظاهر الأدبية وروح الجمال تدرك وتطلب في عالم فتح الله كولن في المنجز المتسم بالإتقان واقتران الغاية الحضارية بالبعد الجمالي وجوهر القيم والأخلاق، ولسان الحال يقول لا بد من اتساق المظهر والمخبر.

وقد يثار السؤال: ما علاقة هذه الملاحظات العامة بالبعد الأدبي في شخصية كولن؟ إن البعد الجمالي الرقيق والإحساس الشاعري الملموس في مؤسسات الخدمة يؤكد بأن وراء ذلك كله روحا تواقة إلى الجمال، ترعاه وتتعهده بالرعاية والتوجيه... وهي روح لم تترك مجالا للشك بأن منظومة القيم الأخلاقية الموجهة تشكل وأبعاد التفعيل والتنزيل عملة واحدة، أو هما وجهان لعملة واحدة.

وروح المسجد في بعده العام تنشر ظلالها على مختلف مؤسسات الخدمة، فهي مساجد للتواصل وللعبادة والتبليغ، وصروح على قدر من الزينة والجمال وعلى قدر كبير من الوعي بأهمية جمالية الفضاء وقيمته باعتبار ذلك عنصرا يضفي رونقا على العبادة في أبعادها الجوهرية. وإذا كان الموضوع بهذه الروح فإن مرشده يؤمن إلى درجة الاعتقاد بأهمية الزينة الباعثة على البهجة وأهميتها وعمق أثرها في الوجدان والمشاعر، ويعتقد أن ذلك جزء أساسي من أسس بناء الوعي وتبليغ البيان الإلهي.

البيان القرآني الملهم

إن عناية فتح الله كولن بالخطاب القرآني، وخاصة مظاهره البيانية كبيرة وصلت إلى حد إطلاق عنوان "البيان الخالد" على تفسيره، وهو ما يؤكد عمق عنايته بالجمال باعتباره مظهرا من مظاهر البيان، فلقد استغرقت العناية بقوة تأثير الكلام الإلهي وأسلوبه وجمال بيانه وقوته حيزا مهما من هذا الكتاب، وهو ما يعتبر دليلا على أن الخطاب القرآني وقوة بيانه يتربع على عرش اهتمامه وعنايته. بل هو يحاول محاكاته في العناية بمظهر المنجز الدال على المعنى، ويحاكيه في خطابه وفي أدبياته، ويحرص على الخطابة في ظله. يقول:

"أنعم -يا إنسان- النظر،
ومن سجن نفسك تحرر،
ولمحات الجمال تشرب..
ودع قلبك يطير فرحا،
وروحك ترقص طربا..
واستشرف جمال "الجميل" في كل جمال،
تطمئن نفسك،
ويزدد إيمانك،
وإلى ربك تعد إنسانا.."[١]

وعلاقة فتح الله كولن بالقرآن الكريم علاقة خاصة لا يعرف حقيقتها وعمقها سوى كولن نفسه، لكن مؤشرات هذه العلاقة والتفاعل الإيجابي العميق بالخطاب الإلهي تطلب في الخطاب الرجل وأسلوبه في الكتابة وفي الحياة الخاصة[٢] والعامة، فالبيان القرآني طبع خطابه بطابع خاص، جعله خطابا نفاذا إلى القلوب مؤثرا في الجوارح والسلوك، ومؤثرا في العقول ونمط الوعي والتفكير والذهنية. إن القارئ لفتح الله كولن يجد عباراته دقيقة رصينة تحسن وصل السابق باللاحق حتى ليخيل للقارئ المتأمل المتنعم بأن معمارا دقيقا يتحكم في هذا الخطاب فلا يترك الفكرة وما يود تبليغه دون أن يصل إلى الأعماق، ويحرص على بلاغة الخطاب حتى يتحقق مراده، وينغرس في قلب متلقيه أو جمهوره أو من استهدفهم بالخطاب. وكأنه فلاح ماهر حريص على وضع البذرة في العمق المناسب بعد أن يحفر لها في التربة بعناية فائقة ودراية دقيقة، فكولن يكتب بقلبه موظفا أدوات القلب. وربما هذا هو السر الكامن خلف العنت والمشقة التي يجدها من يشتغل بترجمته أو ترجمة كتبه ومقالاته إلى لغات أخرى وخاصة إلى

اللغة العربية. ولقد أخبرني بعض من اشتغل بترجمة كتب فتح الله كولن من اللغة التركية إلى اللغة العربية بالعنت الكبير الذي وجده في هذه المهمة الصعبة.

الراجح أن الوعاء الذي يمتح منه الأستاذ هو وعاء اللغة العربية، ولا مبالغة إذا تقرر بأنه يفكر باللغة العربية من زاوية اعتنائه بالخطاب القرآني وتفاعله العميق بهذا الخطاب ومن جهة علاقته الخاصة بهذا الكتاب السماوي، بل الراجح أن يكون وعاء التفكير بالنسبة لفتح الله كولن هو عالم القرآن الكريم ولغته العربية، واعتناؤه باللغة من هذه الزاوية يأتي من إيمانه بأن اللغة "نعمة كبيرة من النعم التي أسبغها الرحمن الرحيم على الإنسان. فبها يتغنى الإنسان بإنسانيته، وبها يتوجه نحو العلم، وبها يعيش في الأجيال القادمة".[٣] ولن يصدر هذا الحكم عن رجل مجرب وعميق الرؤية اعتباطا، فهو يدرك عمق اللغة وقيمتها، وخاصة عندما تكون هذه اللغة هي لغة القرآن الكريم، فالعناية باللغة عموما وباللغة العربية خصوصا هو من أصل مكانة القرآن الكريم في حياته، وفي شخصيته. وليس ذلك بغريب على رجل حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ودرس علومه دراسة متأنية وحفظ كل المتون المتعلقة به. ويُلْمس ذلك بجلاء من خلال المشايخ الذين أخذ عنهم ودرس على أيديهم وأجازوه. وقد شاء القدر توقف مسار علاقة فتح الله كولن بالتعليم العصري، منذ مراحل مبكرة جدا، ولذلك لم يتلوث فكره وتحصيله بلوثيات التعليم العصري، الذي ساد في تركيا بعد دخولها مرحلة الجمهورية والعلمانية، والذي قدر أن يكون حجابا أتاح نفاذ فتح الله كولن إلى عمق الخطاب القرآني، وبعبارة أخرى لقد احتفظ القدر لفتح الله كولن بأفق العلاقة مع القرآن وخطابه دون حجب ولا موانع.

وعلى سبيل التذكير فإن المدارس العلمية التقليدية في تركيا، قد ظل أغلبها موجودا بعد سقوط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة وحافظت على تلقين علومها باللغة العربية خاصة، وباللغة العثمانية والتركية، وهي المدارس التي خالطها الأستاذ ودرس فيها وتتلمذ على مشايخها، ذكر ذلك وألمح إليه فيما كتبه عن سيرته وفيما حققه بعض من درسوا وترجموا له، ونذكر في هذا المقام ما كتبه الأستاذ نفسه في "دنياي الصغيرة"، إذ ذكر جملة من العلماء الذين تتلمذ على أيديهم وكان لهم الأثر البالغ في طبع شخصيته، وعلى العموم فكولن لم يخرج عن إطار خصوصيات الثقافة الإسلامية، التي تعتمد الذاكرة وقوة الحافظة مصدرا من مصادر المعرفة.

وأما حظه من ثقافة العصر فمهم جدا ومتنوع، يشهد على ذلك إشاراته الدقيقة وتضميناته العميقة في كتبه، وهي تؤكد أنه قرأ لكبار المفكرين والأدباء العالميين، الأمر الذي ساهم بصورة مباشرة في حدة زاوية النظر لديه، إضافة إلى عمق ثقافته الأصيلة ودقتها.

الفن وروح الجمال في رؤية المفكر العالم

إذا كان لفتح الله كولن نظرية في الفن والجمال أو في علم الجمال فإن هذه النظرية مستمدة من القرآن ومن روح الكتاب المنزل على محمد ﷺ، والموجه للإنسانية في جميع أبعادها وتصرفاتها وفي كل أحاسيسها ومشاعرها. وهي نظرية مستمدة كذلك مما أورثته العقليات الفذة، التي جادت بها الحضارة الإسلامية على الإنسانية كلها، والغالب أن قناعاته في حقل الجمال والفن والأدب كذلك قد تكونت في ظل معرفته الواسعة والعميقة بخصوصيات التصور الإسلامي للجمال والفن، وفي ظل مختلف النظريات والفلسفات الجمالية التي توصل إليها الإنسان في القديم وفي الفترة المعاصرة. ولا وجود لما يمنع أن يكون صاحب رؤية خاصة للفن والجمال، بل إن معرفته الواسعة تؤهله ليكون تصوره الخاص لعلم الجمال والفن والأدب، وهو مكون أساس في نسقه المعرفي الذي يحتوي رؤيته العامة في مجال البناء الحضاري. والمؤكد أنها رؤية تعدت حيز التنظير إلى التفعيل والتطبيق. إن متتبع فتح الله كولن من هذه الزاوية يكتشف عالما فيه حرص على إبراز قيمة الكلمة وأهمية الأدب والاشتغال في أفق جمالي واسع يستحضر الجوهر، ويحلق من خلال ذلك في الآفاق البعيدة، يقول عن الفن: "الفن من أهم الطرق المؤدية إلى سمو الروح والمشاعر. والذين ضيعوا فرصة استعمال هذا الطريق من أصحاب القبليات والحظ السيئ يعيشون طوال حياتهم كأشخاص أصابهم الشلل النصفي" و"الفن مثل مفتاح سحري يفتح الكنوز السرية المكتشفة. فوراء الأبواب التي يفتحها تكتسي الأفكار صورها، وتكتسب الخيالات أجسامها" والفن كذلك "من أهم العوامل التي تحافظ على المشاعر الإنسانية، وترسم لهذه المشاعر أسمى الأهداف وتزيد من عمق المشاعر لدى أصحاب الأرواح الحساسة".[٤] تؤكد هذه العبارات أن الفن عنده على العموم طريق لربط الوجدان والمشاعر بالغايات السامية، بل سبيل للسمو بها ورفع همتها، وربطها بكنوز الكون السحرية، في ظل كون الفن مفتاحا يفتح خزينة الحقائق بما يتوفر عليه من قابلية تقدم المفاتيح في قالب/قوالب تشع بهجة وجمالا.

الكلمة سلطة بناء وإعمار

فتح الله كولن عالم دين ومفكر وصاحب مشروع حضاري، ويحمل رؤية إصلاحية متطلعة إلى تغيير الذهنيات والعقليات في الاتجاه الإيجابي، ورجل مهموم بمستقبل الإنسان والإنسانية ويحلم بخلاصها مما يهدد جوهرها. وكل ما يبدعه ينبغي النظر إليه من زاوية هذه الرؤية/المشروع. ومسلكه الفني الأدبي والجمالي يعكس روح هذه الرؤية وجوهرها، وهو أمر يجب

عـدم القفـز عليـه ولا تغييبـه عـن نظر واهتمام من يدرسـه من هـذه الزاوية، كمـا لا ينبغي اعتباره مجـرد تـرف يمكـن الاسـتغناء عنه، والغالـب أن لا مجال للترف في حياة هـذا الرجل ولا مجال للهامش، فكل تصرفه وسلوكه عزم متناسق والرؤية التي يتحرك في إطارها.

يؤكد فتح الله كولن في كتاب "البيان الخالد" بأن الإنسان يعبر دائما عن أفكاره وكل ما يلهم قلبه عن طريق أساليب شتى من وسائل التعبير كالسينما والمسرح والتشكيل، وبالأدب الشفوي والمكتوب. ولكن كل ذلك يبقى دون مستوى البيان، الذي يعتبر القرآن الكريم مظهره المثالي، الذي يستحيل على بشر الإمساك بكل دقائقه.

والأدب لدى كولن أوفق وسيلة لنقل الأفكار مهما كانت طبيعة هذه الأفكار دينية أم فلسفية أم فكريـة، فعـن طريق الأدب يسـتطيـع الإنسـان تبليـغ المعرفة المتراكمـة ومختلف التجارب من جيـل إلـى جيـل عبـر التاريخ، وعن طريـق الأدب يجد الإنسـان اليوم -كما يـرى- عبق الماضي وكأنه يقول بأن الأدب بطبيعته هو الناقل الأمين عن الإنسان في الماضي أو عن أجيال الماضي، بـل إن الأدب فـي تصـوره هـو اللغـة المعبـرة بعمق عـن البنية الروحيـة للأمة والمجسـدة لدرجة نضجها ووعيها[٥].

والأدب والكتابـة الأدبيـة مـن منظـوره وسـيلة يعبر بها الإنسـان عـن أغراضه وغاياتـه وهو ما يقتضـي أن يكـون للكتابـة والأدب غايـة يرومهـا، وألا يكون مجرد ترف لا هـدف له ولا وظيفة، وهـو مـا يقصـي بالضـرورة مـن تصـوره فكـرة الأدب لـلأدب أو الفـن للفـن التـي أفرزتهـا بعض اتجاهات الرومانسية واتجاهات أخرى مختلفة. وإذا كان أساس الأدب هو اللغة فإنها ناقل أمين لمشـاعر وأحاسـيس أمـة مـن الأمم إذا أخذ بناصيتهـا، بل هي ناقل أمين لحقيقـة الوعي الجمعي لكن بأسـلوب فني وبليـغ يقول: "الأدب هو اللغة البليغة للبنية الروحية والفكرية للأمة ولدرجة نضجهـا. الأفـراد الذيـن لا يملكون البنية الروحية نفسـها والنظام الفكر نفسـه، ولا يشـتركون في درجة النضـج، يسـتحيل على مثل هؤلاء الأفراد التفاهم فيما بينهم حتى وإن كانوا منتسبين إلى الأمة نفسها"[٦].

على هذا الأساس يصبح الأدب وتصبح الكلمة الأدبية الناقل الأمين للبنية الروحية لأمة من الأمـم، وهـو مـا يعكس حقيقة هذه البنية الروحية والفكرية للأمة، ليسـتحق الأدب والفن عموما وظيفة المسـاهم الحيوي في بناء وعي الأمة، ويسـتحق أن يكون مكونا لا يمكن الاسـتغناء عنه فـي عمليـة الإصـلاح والتغيير، التي يتطلـع إليها مجتمـع من المجتمعات وأمة من الأمم وخاصة المجتمعـات والأمـم الحيـة، وهـو ما وعاه الأسـتاذ حق الوعـي وأدرك كنهه مـن طبيعة الخطاب

القرآني ومن تصرفات الرسول ﷺ، وفي ضوء ذلك جاءت مساهمة فتح الله كولن الأدبية لتؤكد ذلك وتلح عليه فهو يعي -باعتباره مرشدا ومربيا وباعتبار مسؤوليته التاريخية- قيمةَ الكلمة الأدبية ودورها في عملية التغيير الشامل والبناء والحضاري. ولقد اتخذ فتح الله كولن من الكلمة وسيلته للوصول إلى القلوب ووسيلة بناء القناعات وبناء الوعي، والأدب والفن من الأدوات التي وظفها في بناء مشروعه النهضوي، وبلورة رؤيته الإصلاحية كما سلف ذكر ذلك.

إن عمق وعيه بالمنظومة الفكرية والأخلاقية التي ينطلق منها قد جعله يدرك فضل الكلمة البليغة في تحقيق غاية تجديد روح الأمة وبعثها من جديد، لأن الكلمة بهذا البعد كما يعتقد "أهم واسطة لانتقال الأفكار من ذهن إلى آخر، ومن قلب إلى آخر. والذين يحسنون استعمال هذه الواسطة من أرباب الفكر يستطيعون جمع أنصار عديدين للأفكار التي يريدون إيداعها في القلوب وفي الأرواح، فيصلون بأفكارهم إلى الخلود. أما الذين لا يحسنون هذا ولا يستطيعونه فإنهم يقضون أعمارهم في معاناة فكرية ثم يرحلون عن هذه الدنيا دون أن يتركوا أثرا فيها"[٧].

البيان غاية في "البيان الخالد"

إن المتأمل في كتاب كولن القيم "البيان الخالد" سيلمس شدة وعيه بقيمة البيان والبلاغة ووعيه بسلطة الكلمة في التبليغ وفي البناء. وبعبارة أخرى إن هذا الكتاب/التفسير يعكس كما يدل على ذلك العنوان طبيعة نظرته للقرآن الكريم فهو بيان أو بلاغ من الله تبارك وتعالى إلى الناس أو لنقل إلى الإنسانية كلها أوحى به إلى رسوله ﷺ ليرشدهم إلى طريق السعادة والفلاح ويخبرهم عن الآخرة والحشر. وهو كذلك بيان بالمعنى البلاغي واللغوي للدلالة على دقة إحكام الكلام وإحكام العبارة وإحكام البيان في هذا الكتاب الخالد ويؤكد أنه كلام الله. وأما حرص فتح الله كولن على إبراز ذلك فيكشف غايتين منهجيتين:

- الغاية الأولى هي تأكيد أهمية البيان واللغة ودقة العبارة في تحقيق الغايات النبيلة التي يرمي إليها القرآن وهي إرشاد الناس إلى عبادة الخالق وإلى الصلاح والرشد.

- وأما الغاية المنهجية الثانية فهي الإلحاح على أن سمو الهدف وشرف الغاية، يحتاج حاجة ملحة إلى الوسائط المساعدة على ذلك وإلى القوالب الجميلة حتى تبلغ الكلمة مستقرها وتبلغ غايتها، وبأن الجمال في أبعاده الكلية ضرورة لا محيد عنها، ولا ينبغي بأي وجه من الوجوه إهماله والتغاضي عنها واعتباره مجرد ترف يستغنى عنه.

يكشف البيان الخالد حرصا قويا من فتح الله كولن على الوقوف المستمر منذ الصفحات الأولى للكتاب على هذا الجانب، فكل المواضيع والقضايا التي تناولها فتح الله كولن في هذا

الكتاب والتي تبرز الجوانب البيانية وتخدمها، والتي حرص على إبرازها وبيانها والكشف عن بيان القرآن فيها، تؤكد كلها بأن حالة شعور اعتقادي تتلبسه في علاقته بهذا الموضوع. ولم يتوان كولن في هذا الكتاب عن إبراز قوة الخطاب وجمال العبارة ودقة البيان البلاغي في الإشارة إلى ذلك والدلالة عليه. وأمثلة ذلك كثيرة جدا لكنها تصب كلها في عمق واحد وهو إبراز مواطن قوة الخطاب القرآني البيانية ومصدر ذلك، ونجد في الإلحاح على ذلك تأكيدا لفكرة أن منهج اللحظة الراهنة وفي المستقبل هو قوة البيان وقوة الخطاب وضرورة توظيف إمكانات اللغة في البيان، يقول مبرزا هذه الحقيقة في القرآن الكريم: "للقرآن الكريم أسلوب فريد يراعي مستويات المخاطبين الإدراكية في مختلف العصور، فَفَهِمَهُ الناس زمن نزوله بيسر، وكذا من أتوا بعدهم بعصور، إن له أسلوبا في البيان المراد، تنكشف به لجبريل الذي نزل به العوالم معان من ذلك المقام، بينما يدرك الرسول أسراره من أفقه هو، والناس ينهلون منه كل على قدر مداركه، حتى الراعي له فيه نصيب من الفهم والإدراك، وكذا الفلاح وهو يحرث وربة البيت في عملها والبدوي في بيئته"[٨].

وبكلام آخر فإن كتاب (البيان الخالد) من أهم إبداعات فتح الله كولن وينبغي النظر إليه والتعامل معه على أساس كونه محطة جمالية ومصدرا لتبين تصوره في هذا الباب كله، وهو إبراز قوة البيان وقوة الكلمة وقوة الأدب والبلاغة في إبلاغ الرؤى وتحقيق الغايات وكأنه يلفت الانتباه بالقول إن المنهج الإلهي في التبليغ يقوم على أسس كثيرة ومنها البيان، وهو المنهج الذي صار عليه الرسول ﷺ، في التبليغ، ليتأكد بأن منهج النبوة، في التبليغ يقوم على أسس كثيرة من أهمها البيان وسلطة الكلمة وسحرها.

إن كولن ملتزم بهذا المنهج في سبر غور البناء والتغيير، وملتزم بهذا الطريق من أجل رؤية أخلاقية متوازنة متطلعة إلى خدمة الإنسان في كل مكان، بجلب الطمأنينة له، والبحث عن كل سبل بناء علاقة متوازنة ومكونات الوجود. فكل السبل التي تحقق المهمة الأساسية وتحقق التبليغ وتبلغ التبليغ مراده يجب طرقها وهي مشروعة ومطلوبة. واهتمامه بالأدب نثرا وشعرا، وبالفن عموما يدخل ضمن أهداف سامية خطها لتحقيق أشواقه الحضارية وأشواقه النهضوية.

أبعاد الجمال الوظيفية في الفن والأدب

في ضوء ما تقدم يتأكد حرص كولن على إبراز قيمة الجمال تنظيرا وإبداعا، فعلى مستوى التنظير كتب كولن عن مفهوم الجمال، ونظر له، واتجه تركيزه دائما إلى الإبداع وإلى الشعر والنظم الذي ظل دائما يدور في دائرة لفت الانتباه إلى قيمة الجمال المنبت في هذا الوجود

من زاوية مظاهره المختلفة الجامدة والمتحركة والمتحولة. والنظر إليها على أنها تجليات من تجليات اسم الجميل.

وبكلام آخر إن الجمال المنبت في هذا الوجود الفسيح، والذي هو مصدر للتأمل والتغني والاستمداد، هو في أصله انعكاس للجمال الإلهي المطلق، لأن الوجود كله مرآة تعكس الجمال المطلق. والأدب والفن من هذه الزاوية ينبغي أن يكون انعكاسا لهذه الروح وينبغي أن يكون مهتديا بها ومستظلا بظلها. ولهذا فالأدب والفن عند فتح الله كولن قد يطرقان مواضيع كثيرة ويسيحان في آفاق واسعة لا حدود لها، لكن على أساس الانسجام مع كل جميل وصالح ومفيد للإنسانية في وجودها ومعينا لها على الارتقاء نحو الكمال.

قد يتعرض الأدب للقبح وكل ما يدخل في حقله ومن واجبه وشروطه التنبيه على ذلك كله، لكن على أساس ما يتضمنه من قبح، وما يحمله للإنسان من ضرر قد يهدده في حاضره ومستقبله وفي عالمي الغيب والشهادة. إن العناية بالجمال والالتزام بإبراز مظاهره والتغني بها في نصوصه الإبداعية لا يعني عدم تعرضه للقبح ولمظاهره التي تقف في الطرف النقيض للحسن والجمال، بل هي تحضر بصورة ضمنية في كل مظهر وفي كل سلوك جميل وبهيج، إلى درجة أن يصير القبح نفسه بُعدا من أبعاد الجمال لأنه يعلي قيمته ويميزه كما يتميز الخبيث من الطيب، وبعبارة أخرى إن إعلاء قيمة الجمال بكافة مظاهره الإنسانية السلوكية والوجودية والكونية وإبراز أبعاده الإيجابية والوظيفية هي في الحقيقة تنبيه لحقيقة القبح باعتباره ضدا، وكما يقال بأضدادها تدرك الأشياء وتدرك الألفاظ والمعاني والقيم والأحوال.

إن الفن والأدب من هذا المنظور لا يمكن إلا أن يكون هادفا، وقد تتعدد الأهداف والمرامي التي يتطلع الفن والأدب إلى تحقيقها من رقي بذوقه ورفع وعيه إلى جعله وسيلة من وسائل الإصلاح وبث الصلاح في المجتمع بعيدا عن كل ما قد يحشر في التأليب الجماهيري والتأطير الأيديولوجي، بعبارة أخرى: إن الفن الرفيع هو ذلك الفن، الذي يتعالى عن تحقيق الأهداف والمرامي الذاتية فرديا وجماعيا، وحتى الجماعية التي تبطن غايات أيديولوجية ضيقة تشخصن الممارسة في دائرة حزبية ضيقة أو حتى شخصية، والتي قد تجعل الفرد صنما يعبد ويقدس. وعلى هذا الأساس اقترن الجمال بالخير في منظور فتح الله كولن، واعتبر انتصارهما هو ما يجب تحققه؛ لأنهما خميرة الفضيلة، والدنيا نفسها تتجه لا محالة إن عاجلا أم آجلا نحو هذا البعد[٩].

والفن عموما والأدب على وجه الخصوص مقرون بابتغاء الخير، ومن اللازم أن يرتدي الأدب الثوب الذي يناسبه ويتناسب والفطرة، وعلى هذا الأساس يمكن التصدي للقبح

ومقارعته، ولأن المقام مقام أدب وفن وجمال فإن إلباس الخير حلل البهجة وزركشتها بألوان الرقة والبهجة هو المطلوب، حتى لا تتحول لغة الجمال والفن والأدب إلى مجرد خطب وعظ وحسب. ولقد مارس كولن الوعظ في مقامات الوعظ ووظف لغة البهجة والجمال في مقامات أخرى، انسجاما وقاعدة توافق الحال والمقال، وعيا منه بأن لكل مقام مقالا، وبأن الجمال والفن يضمن للكلمة سلطة ودواما واستمرارا وخلودا، يقول: "كل فروع الأدب تعد نوعا خاصا من أنواع التعبير حسب العناصر المختلفة التي يستعملها والأهداف التي ترمي إليها، أي تغدو لغة خاصة لذلك الفرع من الأدب ومع أن الجميع يستطيعون فهم هذه اللغة بدرجات مختلفة، إلا أن الأديب والشاعر الذي يستعمل تلك اللغة بمعناها الحقيقي هو الذي يفهمها حق الفهم"[١٠] ويعني ذلك أن الأفق الذي ينطلق منه الأديب أفق يقتضي الوعي بقيمة الكلمة وسلطتها في تحقيق السمو الروحي المؤدي بدوره إلى السمو السلوكي الذي ينعكس انعكاسا موجبا على الواقع فيؤثر فيه.

ما يلحظه المتأمل فيما أبدعه كولن هو اقتران النظر بالتفعيل، واقتران الرؤية بالتنزيل، ففكره تميز على مر عقود بأنه ملموس ومشاهَد واقعيا من خلال ما يمكن أن نطلق عليه المنجز وينسحب هذا على الفن والأدب وعلى البيان، بمعنى أن نظريته في مجال الفن والأدب تطلب في كل شيء من الشعر والنظم والكتابة.

إن الفن والأدب في نظر فتح الله كولن جزء من البيان ويوظفه من أجل البيان ومن خلال هذه الرؤية سنحاول مقاربة قدر قليل من عالم كولن الفني والأدبي والجمالي، وذلك من خلاله عمله (ألوان وظلال) الذي يعتبر كتابا للغة الروح التي يتطلع إلى زرعها في القلوب وفي النفوس، ويتأمل من خلالها الوجود ويوجه الإنسان إلى ذلك، ويلفت انتباه العالم والإنسانية لما حولها من بهجة ويجري حولها من مآسٍ وهموم سبب سوء تصرفها، وكأن بيانا -بالخط العريض- يقول: الإنسان هو المشكلة والإنسان هو الحل.

يستحضر في هذا العمل روح الوجود، أو يستحضر بأن لكل شيء روحا، وهو ينظر إلى هذه الروح مجتهدا بكل ما وهب من طاقة إبداعية وطاقة روحية لتثمين ذلك، يقول الأديب الرقيق أديب الدباغ في تقديم ألوان وظلال ملخصا هذا العمل الأدبي والفني: "فهذا الكتاب -غريزة القارئ- إنما هو لوحات غاية في الجمال مرسومة بالكلمات والأفكار والمعاني كما أوحته هذه الصور الفوتوغرافية، فهي فكر وأدب وفن ونظرات دقيقة في الإنسان والكون والحياة، وهي بعد ذلك كله غذاء قلبي وروحي للجوعى من أصحاب القلوب، والعطشى من أصحاب الأرواح"[١١].

لا شك بأن "ألوان وظلال" يقول أشياء كثيرة، أو لنقلْ: إن الصور الذهنية كما يطلق عليها بعض من اهتم بفكر الأستاذ تقول أشياء كثيرة، بل هي تركيز لعالم الرجل وفكره ونظرته للوجود والطبيعة والإنسان وواقعه، حتى لم تترك مجالا متصلا بهذا الإنسان إلا وأتت عليه وأشارت إليه، وكأنه يقرأ من سجل سجلت فيه قضايا الإنسان في كل أبعاده المادية والمعنوية، وإفراغها في قالب جمالي شائق، كلافتة يسهل تذكرها ويسهل ترددها والتغني بها. إن (ألوان وظلال) لوحات تأملية مفعمة بالتدبر ومفعمة بالشوق والأمل، ومفعمة بلغة القلب المتوجهة للقلوب ومتوجهة توجه عبادة وتفكر، يقول:

"في الكون تدبَّر،
وفي الطبيعة تَفكَّرْ،
نشازًا لن تجد،
واختلالاً لن ترى...
مَوزونٌ كُلُّ شيء؛
كقصيدةِ شِعر،
وسمفونيةٍ رائعة اللحن...
فأظنّك تعلم،
أن التفكّر من أعظم العبادات..." (١٢) (١٣)

على هذا الأساس يتحول (ألوان وظلال) إلى كون بياني يلخص الكون على الحقيقة بكل ما فيه من مظاهر معنوية ومادية. وما يجب التسطير عليه في تلك اللوحات هو الأبعاد المتصلة بالرؤية المتشوفة إلى الرقي بالإنسان والرقي بواقعه، والمتشوفة كذلك إلى بناء وعي إنساني منسجم وإيقاع الكون، والمتطلعة كذلك إلى إحداث الفرق والتميز على مستوى السلوك.

والتساؤل حول طبيعة هذا المترجم في هذا العمل الأدبي ذي الأبعاد الفنية والإبداعية ملحٌّ، فقد يعد شعرا إذا نظر إليه في لغته التي كتب بها وهي التركية، والذي ترجم ليس شاعرا في الغالب فقد ترجم المعنى أو كما قال أعاد صياغة ما ترجم له وهو ما يؤكد قوة هذا النظم أو الشعر في لغته الأصلية، وسنعتبر أن ما في (ألوان وظلال) نوع من النظم الشاعري أو هو نوع من النثر المشعور أو الشعر المنثور. لكنه نظم وفق كثيرا في نقل حقيقة عالم فتح الله كولن الأدبي والشاعري.

وفي ضوء الذي تقدم، يمكننا أن نسأل: ما حدود انسجام الممارسة الفنية والأدبية مع رؤية الأستاذ كولن؟ وهل تكشف الصور الفنية والنظمية أو الشعرية بحسب اللغة الأصلية لهذه النصوص عالمَ فتح الله كولن فعلا؟

إبداع العتبة يضيء عالم النص

سبقت الإشارة في مكان سالف من هذه الدراسة إلى أنَّ هناك مظاهرَ دالة على سموّ الحس الجمالي عند فتح الله كولن وحضور روح الإبداع في كل منجزه وكل ما له صلة بهذا الرجل ولو من باب التوجيه والإرشاد، بدءا من مدخلاته الأولية أو بدءا من عتباته. وكذلك النص/ النصوص التي رهن أيدينا.

هناك مثل شعبي يقول بأن عالم البيت وأخباره تدرك من بابه أو من عتبته، فأخبار هذا الكتاب تدرك هي الأخرى من عتبته الأولى، التي تقول أشياء كثيرة وتقدم معلومات مهمة لمن يقدم على دخول عالم هذا النص، وعلى العموم فإن كل من تفاعل مع كتب كولن سيقف على مدى اهتمامه بعتبة العنوان اهتماما يؤكد حرصه على أن يتضمن العنوان رسالة أو بيانا للمتلقين والمرسل إليهم، وهو سلوك ثقافي متصل بوظيفة وغاية وبأن لا مجال للاعتباطية فيما يقوله ويكتبه، وهو سلوك ممنهج اكتسب في الغالب من عمق تفاعله والخطاب القرآني، الذي لا وجود فيه لما لا وظيفة بيانية له، وما يؤكد ذلك كذلك هو تركيزه على الجوانب البيانية في تفسير "البيان الخالد"، كما أشير إلى ذلك سالفًا.

اختيرت العتبة الأولى أو العنوان الأول وهو ألوان وظلال بعناية كبيرة جدا لصنع الإثارة وجذب المتلقي إلى عالم النص الكبير والفسيح. وصب في قالب تركيبي هو الجملة الاسمية للدلالة على الاستمرار والدوام في مقابل الفعلية التي تدل على الحركة والتحول والتغير وعدم الاستمرار، وقد أظل البعد الاسمي أغلب عناوين هذا العمل الأدبي، والغالب أن ما كان يرمي إليه هذا العمل الأدبي والفني هو تقديم رؤية تتسم بالاستمرار والدوام، أو هي بالأحرى رؤى ومواقف ثابتة لا تعرف التحول، بل هي نوع من الالتزام الفكري الذي يترجمه الالتزام السلوكي، المترجم عن قيم المرسل ومواقفه.

وأما اللون/ألوان فتحيل دلاليا على حقل الألوان في الطبيعية بما تتميز به من استمرار ودوام دون أن تبهت حقيقتها، عكس تلك الألوان المصطنعة، وكأن الألوان الطبيعية تلفت الانتباه لما في الوجود من حقائق ومظاهر لا تتغير، كما تؤكد بأن مختلف مظاهر الواقع والوجود المادية والفزيائية تنعكس معنويا على ذات الإنسان بصورة عامة، وتحيل في الوقت نفسه على الروح

التي تسري فيه، لأن لكل مظاهر الوجود بما في ذلك الألوان روحا. وأما الظلال فتحيل على الظلال الوارفة التي تظل هذا الوجود وحقيقة الروح السارية فيه، فكلاهما أي الوجود والروح مخلوقان يدلان عليه هو تعالى، يقول: "كل شيء يشهد على وجود الله تعالى ووحدانيته من كلّ وجه، إلا أن عجز الإنسان عن تقويم رؤيته يحول بينه وبين الإيمان، كما كان الكبر والظلم وتقليد الآباء والأجداد يحول دون الإيمان". ويضيف: "لكن عندما نظرنا إلى الكون بوجهة نظر مادية أو طبيعية أو وضعية لن نستطيع سماع صوت الكائنات التي تعرِّف بالله تعالى بآلاف بل بملايين الألسنة، ورغم أن أمثال هؤلاء يدققون النظر في الكون إلا أنهم ينسبون كل شيء إلى الطبيعة لعجزهم عن الرؤية مع أنهم ينظرون، أو لعدم قدرتهم على القفز إلى ما وراء ما يرونه، وبعبارة أخرى: إنهم لن يستطيعوا تقييم الأشياء والأحداث التي شغلوا بها تقييمًا يدلهم على الذات الإلهية، لأنهم لا يعرفون كيف ينظرون وإلامَ ينظرون"[١٤]. والإحالة هنا على المعنى الحرفي لمظاهر الوجود وليس المعنى الاسمي، باعتبارها مخلوقات من مخلوقاته تعالى بما في ذلك الروح السارية فيها، ولذلك فهي ظل من ظلال القدرة الإلهية والتغني بها وبيان هذا الجانب المشرق منها والدال على الخالق تعالى إنما يتم هنا بهذا البعد ويتم بهذا المعنى وهذه الشاعرية.

ورد هذا العنوان متعلقا بشبه جملة مكونة من حرف الجر "في" وهو حرف يدل على معنى في غيره، ويدل هنا على الوعاء. فالألوان والظلال أي مظاهر هذا الوجود تدل على الذي زرع الروح فيها، وهي منعكسة على هذا الأساس في مرآة الوجدان، مرآة وجدان المرسل وهو هنا النص، وكأنه يؤكد بأن الألوان والظلال تحضر في هذا النص/النصوص بالمعنى الحرفي وحاشا أن تكون بالمعنى الاسمي، قد تحيل على المعنى الاسمي من جهة اكتساب صفة المخلوق بفضل الخالق وبفضل نفخ الروح فيها. وعلى هذا الأساس فالعنوان يقدم معلومات جمة، بل يمكن اعتباره مفتاحا لفهم كافة العناوين الواردة في العمل الفني، ومفتاحا لفهم نصوصه كلها.

النص رسالة وبيان

كل نص من نصوص هذا العمل البياني رسالة وتوجيه، بل بيانات أفرغت في قالب جمالي، كمن يكتب رسالة ذهبية يضمنها وصيته/وصاياه لمن يحب وهي في حال كولن أمته التي ينتمي إليها بل والإنسانية كلها، لكن هذه الوصية/الوصايا تحتاج إلى قرطاس جميل يجذب الألباب والعقول ويشد الأرواح الطيبة، وهذا القرطاس الذهبي إبداع مؤسَّس على قوة الكلمة ورشاقتها دون تكلف ولا لي لعنق التعبير، تنساب كشلال عذب هادئ يشعر المتلقي بالراحة

النفسية ويهيئ الذهن للتلقي. وبعبارة أخرى إن فتح الله كولن واع كل الوعي بضرورة الابتعاد عن التكلف، وعلى الرغم من كون نصوص العمل مترجمة عن اللغة التركية، فإن الفريق الذي أشرف على الترجمة والتعريب، قد حرص على الابتعاد عن التكلف كما تجنبه الكاتب وحرص على الانسيابية في العبارة مع الاختيار الدقيق جدا للمعجم وعباراته، يقول فتح الله كولن عن توظيف البلاغة وأهمية مباحثها: "من المهم جدًّا الاستفادة من الفنون اللفظية المختلفة مثل الاستعارة والكناية والمجاز والجناس والتورية لا سيما في الأسلوب الأدبي والخطابي عند التعبير عن قضية ما، ومع ذلك يظل من الضروري الحرص على عدم التكلف والتصنع في هذا الصدد، ولا ينبغي البحث عن الإعجاز والإبداع بتعابير مغلقة وغامضة ومبهمة كما يفعل بعض الكتاب والشعراء اليوم، ولا الدخول في الأوهام والخيالات للتعبير عن أنفسنا، يجب أن ننتبه إلى أن تكون الموضوعات التي نتحدث عنها ونكتبها مفهومةً؛ ولكن لا ينبغي أن نهمل العمقَ والفنَّ فيها.. إن سرَّ عمقِ القرآن كامنٌ في وضوحه، إنه كالماء النقي الصافي. أجل، هو نقيٌّ وصافٍ وبراق لدرجة توهمك بضحالته عندما تنظر إليه من الشاطئ، وتقول: إنني إن أدخلت رجلي فسيصل إلى كعبي فقط، لكنك عندما تدخل فيه تغرق.. هذا هو العمق القرآني"[١٥] مباحث علم البلاغة ذات أهمية بالغة جدا بالنسبة لفنون التعبير وخاصة الأدبية، شرط ألا تكون هي الهدف، وأن تظل مجرد وسيلة مساعدة على تحقيق مرامي الخطاب، وعلى هذا الأساس يفصح كولن عن موقف نقدي في غاية الأهمية يؤكد من جهة اتساع اطلاعه على المعطي الأدبي الذي روجته مختلف النظريات الأدبية وخاصة تلك التي برزت في ظل الحداثة وما بعدها، والتي تعتبر الغموض والتعتيم جوهر الإبداع والفن، في حين يلح كولن ضمنيا على الوضوح وعدم الإسراف في الغموض بل وينكر التعتيم، وهو تصور نقدي يلح على البعد الوظيفي للأدب، ويلح على قضية المسؤولية في هذا المجال، ولا أقول الالتزام لأن الالتزام ارتبط بالواقعية الاشتراكية التي أخضعت الفن عموما والأدب على وجه الخصوص للأيديولوجيا الضيقة فصارت سيفا مسلطا، في الوقت الذي تعد فيه الحرية المسؤولة من مستلزمات الفن عموما والأدب خصوصا، يقول عن مفهوم الحرية: "الحرية هي عدم قبول الروح سوى المشاعر العلوية والأفكار السامية، ولا تعني الإسار لأي مبدإ سوى مبدإ الخير والفضيلة" ويضيف "الحرية هي تحرر الفكر الإنساني من كل قيد يمنعه من الرقي المادي والمعنوي بشرط عدم السقوط في وهدة اللامبالاة أو الانفلات من الشعور بالمسؤولية"[١٦] [١٧].

تكسير الحدود وتذويب الموانع

في نصوص ألوان وظلال تتكسر الحدود وتذوب الموانع بين الرؤية والنظر، وبين قلب الشاعر وكل الكائنات، بل وكل مظاهر الوجود، لتصبح وكأنها شخوصا تتكلم بالخطاب وتسمعه وتبلغه، ويلمس القارئ وكأن فتح الله كولن يخاطب فيها روحها انطلاقا من روحه، لأنه يعتقد ولا يظن بأن لها روحا. ويشعرك بأنه يستحضر كولن كل مظاهر الوجود جندا من جنود القدرة الإلهية تتصرف وفق نظام معروف لديها أو لنقل وفق نظام أودعه الله فيها، وفي أصل خلقها. بعض النصوص يغلب عليها نبرة الألم والحزن، بل واليأس في بعض الأحيان، وفي مستطاع المتلقي أن يستشف منها بعضا من جوانب نفسية فتح الله كولن نفسها، حين يتلبسه حال من الحزن والألم على المصير فكولن الذي لم ينجب ولم يتزوج قد ينتابه هم الموت والرحيل عن العالم وهو وحيد ودون ترك أثر منه في هذا العالم، لكن يجد سلوته مع ذلك في التعبير عن هذه الحال التي يتوق من خلالها إلى غرس همة الحركية لمن ينصت لهواجسه ويتأمل تفكره، يقول مخاطبا رمزا لم يفصح عنه سوى من خلال اللوحة المصاحبة للنص:

"وحيدة في القفر،
دَمْعًا تسكبين، والقرَّ تَشكِين،
والسافياتِ العاصفاتِ تُعانين..
ما كنتِ هذا تتوقّعين،
لهذا اليوم لم تستعدّي،
وأمثالَكِ لم تنسلي،
وأفرادًا من جنسك لم تستولدي..
نومًا نمتِ، وبذورَك لم تنشري..
وا حسرتاه!.
مثلي تمامًا، وحيدةً اليوم تبقِين،
وعن قريب تموتين، وتنقرضين"[١٨]

فهذه الصورة بقدر ما تنم عن حزن ذاتي دفين، بقدر ما تعبر عن وضع رمزي أو لنقل مرموز إليه وهو وضع الفعالية الواقعية الصامدة الوحيدة، التي لا تجد من يعتني بها مما يجعلها عاجزة عن التوالد والانتشار ومن ثَمَّ القدرة على العطاء.

وبكلام آخر قد يكون مبعث هذا الحزن ذاتيا، لكنه ليس هو المقصود وليس هو المراد لأن الرجل ليس من طينة العقليات الفذة التي تميل إلى الحديث عن نفسها وعن ذاتها، ولكنه حزن وجودي ملازم لهذا الرجل بالنظر إلى الهم الذي يطوقه، وهو هم توقه إلى رؤية الإنسانية كلها وقد أدركت حقيقة وجودها على وجه هذا الكوكب، وأدركت وظيفتها الأخلاقية من هذه الزاوية. يقول مقدم ألوان وظلال: "إن من يطرق أبواب هذا الكتاب إنما يطرق أبواب مملكة واسعة الأرجاء من المشاعر والأفكار، وقراءته تعلمنا كيف نعيش في مستوى عال من الحدس والشعور المرهف والحس الرفيع، مثلما نعيش بأذهاننا وأفكارنا، وأن نكون على استعداد على الدوام لنرى صور الأشياء المحيطة بنا من كل جانب وهي طافحة بالإيماءات إلى خالق الصور ومنشئ الأجساد والأرواح... إن نضالاتنا الذهنية تبدو بلا معنى إذا لم ندخل إلى حومة النضال معنا قوى أرواحنا ومشاعرنا وخيالنا وأحاسيسنا، وكل لطائفنا الأخرى لنستقوي بها جميعا في هذا النضال في مواجهة محن الفكر والإيمان.. إننا ملزمون جميعا أن نضرب عاليا في معارج الرقي الإنساني، وأي توقف عن هذه الغاية سيدفعنا دون شعور منا إلى دركات سفلية مظلمة تفقدنا البصر والبصيرة؛ فالروح المنكفئة على نفسها ستصاب بالبرد والارتعاش عند دخولها عالم الأرواح الحركية الحارة، شاعرة بالغربة بينها، وبالدونية تجاهها"[١٩].

كل صورة وكل نص في هذا العمل تعبير فني بروح تواقة إلى الجمال عن موقف وعن تصور لقضايا الإنسان في علاقته بخالقة وذاته والوجود كله، بل هي قطعة من قطع الرؤية الكبرى أو الرؤية الشاملة كلُعبة `البازل´ التي تتكامل قطعها لتشكل في النهاية شكلا أو صورة يفرح الذي يقوم بتجميعها كاملة متكاملة. وما تضمنه ألوان وظلال من صور بيانية وذهنية تصب أغلبها إن لم نقل كلها في دائرة الرؤية الشمولية المعبرة عن شخصية المرسل فتح الله كولن وتجميعها كلها يشخص تلك الشمولية في بعد فني جمالي أدبي، بل هي تجسيد للرؤية الإسلامية للجمال والفن والأدب، لكن ببعد مفعل، وقد يثار السؤال لماذا هذا السلوك وما الغاية منه ألا تغني مؤلفاته النظرية عن هذا؟ والجواب هو إن إعادة إفراغ ما ضمنه مؤلفاته في قالب جمالي أو لنقل قالب بياني من زاوية أخرى يقدم فوائد دقيقة رقيقة هذه بعضها:

- أولا، دفع المتلقي إلى إعادة بناء الرؤية الشمولية من زاوية أخرى، وذاك مجهود ذهني ومعنوي تشترك فيه كل جوارح المتلقي، وهو مدعاة لترسيخ الصورة الكاملة لكن ببعد بهيج وجميل ورقيق.

- ثانيا، الإلحاح على أن البهجة والبيان والجمال بعد ضروري من أبعاد منهجية التبليغ والدعوة إلى القيم الإنسانية السامية، خاصة في ظل المظاهر الشكلية والمضمونية الخادعة التي يحفل به الواقع المعاصر، وخاصة في مجال الفن والأدب.

- ثالثا، التأكيد بأن كل مظاهر الوجود بما في ذلك عالم الإنسان الداخلي الوجداني ينبغي أن ينخرط في سلوك البناء والإعمار، وأن يكون صرحا من صروح التفاعل والتآلف.

- رابعا، إن اكتمال صورة الوجود ببعد جمالي ووجود الإنسان باعتباره شجرة الخلق كما يعبر عن ذلك بديع الزمان النورسي يقتضي وضع هذه القطعة الجميلة جدا أي الإنسان في مكانها المناسب.

- النقل الأمين للغة القلب في تفاعلها والرؤية الشمولية، فقد يعجز القول النظري المباشر عن ترجمة دقة ما يختلج القلب من مشاعر تجاه الرؤية لكن الأدب عموما والشعر خصوصا ينجح في ذلك لأنه هو عالم لغة القلب بامتياز.

اللحظة الأدبية لحظة سلوك حضاري

في ضوء ما تقدم فإن المتأمل في هذه النصوص سيكتشف مواقف ذات أهمية بالغة في رؤية فتح الله، فهو يصر أن العصر هو عصر الكلمة وأن السيف ينبغي أن يتحول إلى قلم، وكأنها دعوة إلى نوع من الجهاد بالقلم وبالكلمة والبيان، وهو يعتقد ولا يظن بأن السلاح الذي ينبغي الحرص على امتلاكه، والحرص على أن تتسلح الأجيال اللاحقة به هو سلاح القلم وسلاح البيان وسلاح الكلمة نظرا لما في هذا السلاح من طاقة تعين على مسح الألم وإحقاق الحق، كما يقول:

"متى يا سيوفُ أقلامًا تَعُودين؟
متى يا دماء على الأرض تجفّين؟
والسيفُ إنْ عادَ قلَمْ،
مسَح الألَمْ،
وهتك الظُّلْمَ والظُّلَمْ،
وعالج الداء، وجاء بالدواء...
فمِداد الأقلام في عقول الأجيال،
أَوقعُ اليوم من سيفٍ كرَّار،
ودمٍ هدَّار،

وهو في الميزان
كنجيع الشهداء في الميدان..."[٢٠]

هذه دعوة وبشرى، دعوة إلى ضرورة التمسك بمنهج العلم والفكر لأن من خواص القلم، العلم والفكر، وأما البشرى فتتجه إلى حملة القلم وجنوده وتضعهم في صف المجاهدين والشهداء والواقع المعاصر وما يوحي به في المستقبل هو ميدان جهادهم.

ومن زاوية مختلفة فإن هذا النص يحمل في طياته دعوة ضمنية ترفض العنف وترفض الإرهاب وإسالة الدماء واستباحة الأرواح، وتؤكد أهمية العلم والفكر والتربية لأن القلم يدعو إلى الفكر والعلم والتربية، في الوقت الذي قد لا يستدعي فيه السيف الفكر والعلم والتربية. والظاهر أنه من خلال عرض هذه الرؤية وهذا الموقف على شريط الأحداث التي تجري على ساحة الواقع العالمي الحالي تتأكد شدة حرص كولن على النأي بنفسه وحركته عن مختلف الصراعات ذات الأبعاد العنيفة، والحرص على عدم الانجرار إلى كل ما من شأنه الوقوع في شرك الفرقة والصراع، وهما عدوا الإنسان في كل عصر.

وفي ظل هذه الرؤية يمكن التوقف عند تذكير هذا المفكر الشاعر بالقيمة الحضارية للأمل وهو أمل يقيني لأنه مشدود إلى الثقة في وعد الله ومشدود إلى حقيقة وراثة أهل الصلاح للأرض. فاليأس لا مكان له في رؤية كولن ولذلك تشهد تأملاته الفنية تفتحا على المستقبل وعلى ما يحمله الربيع أو فصل الربيع بما يمثله من تجدد وتفتح، يقول في نص يعبر في هذا الاتجاه:

"لا تحزن على شحوبها، فغيرُها مخضرًّا نبت،
وتلك سنّة الله ماضية،
ترى شتاء عابسًا بثلوجه وصقيعه،
وإذا الربيع يبث في كل ناحية فرحًا"[٢١].

لم يتوقف لحظة واحدة في هذا العمل عن التذكير بأن الأرض وما يتصل بها والوجود كله ذلك قرآن منظور يساعد الإنسانية على الحركة الإيجابية، لكنه يتأسف على ما لحقها -أي الأرض- أو ما لحق هذا الصرح الجميل من تلويث وآثام، لتتعمق قضية كون اللحظة الأدبية والفنية عند كولن لا تخرج في الغالب عن إطار الدعوة إلى الصلاح والإصلاح، تلك آماله وأشواقه تتردد بصور مختلفة وبقضايا متنوعة هي أشواقه التي زرعها في فرسانه، وتحقيق هذا الأمل مرهون بالفرسان، بفرسان الإيمان الذين تركوا أثرا طيبا على وجه هذه الأرض، إنها

لحظة تطلع مفعمة بالأمل في بروز فرسان الإيمان القادرين على محو ما علق بالأرض والقرآن المنظور من لوثيات وآثام، يقول:

"هؤلاء السالكون،
فرسان سائحون،
وبالطريق هائمون...
قلوبهم بالإيمان مترعة،
ونواصيهم بالفكر مشرقة...
من هنا مرّوا،
وآثارا لهم تركوا،
والآفاق نوّروا،
والطمأنينة نشروا....!"[٢٢]

لم يتوقف كولن كذلك على طول ألوان وظلال بالتذكير بأن الأمر في أصله متصل ومرهون بالاعتقاد بأن الثقة في الله هي المفتاح وهي النور الذي يمنح الفرسان -فيما يبدو- الطاقة اللازم لأنه هو واهب الحياة، فكل شيء قابل للتحول في لحظة بقدرته وتدبيره، ورهين بشدة ما يبديه الإنسان من حركة وعمل وإقبال على المبادرة، إذ لا بد من أخذ المبادرة وترك الصراخ والبكاء على الأطلال. ونموذج الإنسان القادر على إحداث التغيير ليس هو ذلك الإنسان المنهزم الذي يقف متباكيا على واقعه، بل هو الذي ترك الشعور بالضعف وتدثر بالعزم والعزيمة وقوة الإرادة وكسر سلاسل الضعف والهزيمة، وشرط النجاح في هذا الاختبار هو نكران الذات، وعدم ربط الأقدام والعمل بالأجر والمقابل، بعبارة أخرى إن كولن يؤكد ضرورة أن يكون الأقدام والعمل خالصا لله، لأن الإخلاص لله والإخلاص للمهمة السامية هو مفتاح التوفيق والنجاح.

إن نصوص هذا الكتاب الفني والأدبي (ألوان وظلال) تقول أشياء كثيرة وتفصح عن جوانب دقيقة في رؤية كولن أكثر مما تفصح عنه النصوص النظرية التي تنطق بها كتبه وخاصة كتاباه "ونحن نقيم صرح الروح" وكذلك "ونحن نبني حضارتنا". فكل هذه النصوص مصابيح مشرقة تنير حقيقة ما يكتبه فتح الله كولن نظريا. لا شك بأن الخطاب الكولَني -إن صح هذا التعبير وهذه النسبة- خطاب واحد، لكن يقدم للتاريخ وللحظة التاريخية وللإنسان بوجوه مختلفة، لكن هذه الأوجه ترتوي كلها من عين واحدة ومصدر واحد.

الإنسان هدف ومسؤولية

إن الإنسان باعتباره المكون المركزي في رؤية فتح الله كولن يوجد كامنا في كل صورة وفي كل نص من نصوص ألوان وظلال فهو الذي يجب أن يعمل وهو الذي ينبغي أن يجدد إيمانه وهو المدعو إلى رفع النظارة السوداء عن عينه والنظر بإيجابية إلى العالم، والاعتقاد بأن صلاح حاله قريب وفي المتناول، يقول:

"نظارتك السوداء،
هَمًّا وحُزنا أورثتك،
عالما أسود أرتك...
وإن أنت أبدلتها،
سعدت،
وعالما مشرقا رأيت، ودنيا بزاهي الألوان شهدت..."(٢٣)

رغم كل ما في هذا العالم من مآسٍ وآلام فلا مبرر لليأس وفقدان الأمل، بل هو حال ينبغي أن تشعر الإنسان بالمسؤولية. والمسؤولية والإحساس بها بالنسبة لفتح الله كولن مكون مركزي في رؤيته، وهي مسؤولية تتعدى الحيز الضيق وتتسع لتشمل الإنسانية كلها، إذ يعتبر نفسه مسؤولا مسؤولية مطلقة عن كل فرد من أفراد الإنسانية. ولذلك فإن دعواه هذه لا تستثني أحدا، بل تجدها تتحرر من جميع القيود المانعة كالانتماء الديني والقومي والثقافي. يقول وقد هاله الحال التي صار إليها الإنسان الذي كرمه الخالق:

"قمامة بين القمامات جعلوك،
ضائعا بين القارورات من حولك أرادوك...
بك استهانوا، ومن عليائك أنزلوك،
ومن تكريم الله لك أهبطوك،
وإلى أسفل سافلين أسقطوك...
ألا يخجلون، ومن فعالهم هذه يستحيون...؟!"(٢٤)

الطاقة التي ستمد الإنسان بالقوة اللازمة لتحقق الآمال المرجوة وهي خلاص الإنسان والإنسانية كلها من ويلات الواقع، تكمن في أن يتدبر الإنسان حقيقته ووعي موقعه في هذا الكون الفسيح، لكن هذه الآمال في حاجة إلى الارتقاء في سلم الروح والتشبث بأسباب السماء لأنها تمهد السبل وتمهد الطرق وتفتح الأبواب الموصدة، يقول:

"وامتد واتسع،
كن كوني الزمان،
كوني المكان،
سائحا في مهول
الفضاءات...
مؤمنا بعظمة الرب...
معلنا سعة الحق،
وإلا أخذك التيه،
واحتواك المجهول،
وخبَلت الحيرة عقلك،
وضيعت رشدك..."[٢٥]

هذه دعوة صريحة مفعمة بالأمل واليقين في الأفق الإيجابي، تتأسس على انخراط الإنسان في بعده الكوني في الزمان والمكان، سائحا في الملكوت معترفا بعظمة الخالق، حتى لا يتيه عن غايته وهدفه، وكأني بفتح الله كولن وهو يدعو إلى ذلك من خلال تكثيف الدلالة وتبئير المعنى واختصار اللفظ والمبنى، وكأنه يريد للإنسان اختصار المسافات وتركيز النظر بجعله جمالي البعد مدركا لحقيقة الجلال الذي تدل كل مظاهر الوجود عليه، يقول:

"أنعم -يا إنسان- النظر،
ومن سجن نفسك تحرر،
ولمحات الجمال تشرب...
ودع قلبك يطير فرحا،
وروحك ترقص طربا...
واستشرف جمال "الجميل" في كل جمال،
تطمئن نفسك، ويزدد إيمانك،
وإلى ربك تعد إنسانا..."[٢٦]

على سبيل الختم

وعلى سبيل الختم فإن قضية الجمال والفن والأدب في رؤية فتح الله كولن تفرض نفسها على من يدخل عالم هذا الرجل من هذه الفسحة؛ لأنها تعكس بعمق علاقته الوجدانية برؤيته

الإصلاحية وتصوره للواقع وما يعج به من أحداث ووقائع، بعبارة أخرى إذا كانت الأبعاد النظرية وهي كثيرة في حياة كولن لا تعكس عمق تفاعله الداخلي والنفسي وخطابه، فإن ألوان وظلال يعكس عالمه الوجداني وداخله النفسي ويعكس في الوقت نفسه حقيقة علاقته الوجدانية بمشروعه الحضاري ونظرته لكون والوجود والإنسان جزء لا ينفصل عن هذا البعد.

إن الملاحظات التي تمت مقاربتها في هذه الدراسة مجرد غيض من فيض، وحسبها أنها حاولت لفت الانتباه للزاوية الجمالية والفنية، أما نظرية الأدب والنقد عند كولن فهي تحتاج إلى مقاربات كثيرة ومن زوايا مختلفة، وحسبُ هذه الدراسة هو لفت الانتباه لهذا العالم الذي يتوجب الاهتمام به في وقت تعرف فيه وسائل التواصل والتفاعل ثورة عظيمة قد تغري البيان في المستقبل.

الهوامش

(١) الإنسان والجمال، ألوان وظلال في مرايا الوجدان، ترجمة هيئة حراء للترجمة، تعريب أدبي أديب إبراهيم الدباغ، دار النيل للطباعة والنشر، ط/١: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٣: ص ٨٩.

(٢) قد لا نعرف الشيء الكثير عن حياته الخاصة عندما لا يكون بين طلابه أستاذا، لكن الخلوة والاعتكاف في عالمه الخاص يشير إلى ربطه لعلاقة خاصة بالقرآن الكريم.

(٣) الموازين، أو أضواء على الطريق، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، ط/٨ ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م: ص ١١٢.

(٤) نفسه: ص ١٥٢-١٥٣.

(٥) نفسه: ص ١١٤.

(٦) نفسه، أو أضواء على الطريق: ص ١١٤-٤٣٥.

(٧) نفسه: ص ١١٤

(٨) البيان الخالد، لسان الغيب في عالم الشهادة: ص ٥٠-٥١.

(٩) الموازين: ص ١٠٧.

(١٠) نفسه ص ١١٤.

(١١) ألوان وظلال في مريا الوجدان: ص ٤ (المقدمة).

(١٢) شد الرحلة إلى غايات سامية.

(١٣) الكون شعر منظوم، ألوان وظلال: ص ١١١.

(١٤) شد الرحال لغاية سامية.

(١٥) ترصيع الرسالة بالفصاحة وحسن البيان، الهدي النبوي .....

(١٦) الموازين، أو أضواء على الطريق: ص ٩٦.

(١٧) تحتاج النظرية النقدية والأدبية عند كولن لوقفة خاصة وهو ما ينبغي الاشتغال عليه في دراسة لاحقة.

(١٨) الشجرة الوحيدة، ألوان وظلال في مرايا الوجدان: ص ١٩.

(١٩) نفسه، تقديم: ص ٧-٨.

(٢٠) السيف والقلم: ألوان وظلال في مرايا الوجدان: ص ٢٠.

(٢١) فرح الربيع، ألوان وظلال.

(٢٢) الفرسان، ألوان وظلال في مرايا الوجدان: ص ٢٤.

(٢٣) النظارة السوداء، ألوان وظلال في مرايا الوجدان: ص ٢٨.

(٢٤) الإنسان المكرم، نفسه: ص ٨٣.

(٢٥) أيها الإنسان!، نفسه: ص ٨٤.

(٢٦) الإنسان والجمال، نفسه: ص ٨٩.

إن أكثر الأشياء التي نحتاج إليها اليوم هو إذابة الحقد والعداوة في بوتقة التسامح. وإذا اجتمع منتسبو الأديان والثقافات المختلفة على أرضية مشتركة وتعرف بعضهم إلى الآخر، فسيتقاسمون حتمًا القواسم والجماليات التي يرونها عند بعضهم الآخر.

إن أعظم هدية يقدمها أجيال اليوم إلى أبنائهم وأحفادهم هي تعليمهم العفو حتى في مواجهة أكثر السلوكيات فظاظة وأشد المواقف والحوادث قبحًا واشمئزازًا. فنحن نؤمن بأن التسامح والعفو جديران بشفاء معظم جراحنا.

لا تسامح مع الذين يهددون القيم الإنسانية العالمية، ويعرضون مستقبل الإنسانية للخطر، ويدمرون القيم المعنوية والقومية. كما لا يجب أن يقدم المسلم أية تنازلات فيما يتعلق بأوامر الدين بذريعة التسامح والحوار.

إن قضية الجمال والفن والأدب في رؤية فتح الله كولن تفرض نفسها على من يدخل عالم هذا الرجل من هذه الفسحة؛ لأنها تعكس بعمق علاقته الوجدانية برؤيته الإصلاحية وتصوره للواقع وما يعج به من أحداث ووقائع.

nesemat.com نسمات nesemat.com

9 789776 704176

دار الانبعاث للنشر والتوزيع